17 me Année No. 848

Lundi — 29 — 8 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٤٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٨ — ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

كانتـــا أمتين . . !

في عيد الباكستان (*)

لحضرة صاحب المعالى إبرهيم دسوقى أباظه باشا

كانتا أمتين انبثقت إحداهما عن الأخرى، ثم خطت الأولى خطاها إلى مستقر الخلود ، وظلت الأخرى وستظل تصمد فى مراقي الحرية والكرامة ، مدفوعة بمـا ينبض فى تجاليدها من حرارة الإيمان وصدق الجهاد اللذين تحدرا إليها من الأمة الماثلة فى الرجل الخالد محمد على جناح .

وليس على الله بمســـتنكر   أن يجمـــع العالم فى واحد

كان ، أجزل الله مثوبته ، أمة وحده حقاً ، خلق أمته من حلم رف فى يقينه ، وخاطر استبد بخَلده ؛ ثم نشأها على معان عالية من العزة والكرامة ، فكانت بين عشية وضحاها خامس دولة بين دول العالم ، وأول دولة بين دول الإسلام .

إن محمد على جناح الزعيم المسلم يقف وحده بين عظماء التاريخ وزعمائه فوق قمة لم يطاولها وان يطاولها عظيم من عظماء الرجال وأفذاذهم ، فقد تميز بسمات وخصائص لم تتوفر لسواه .

رجل تمخضت حركته عن إنشاء دولة وبناء أمة .

ولو تراخى الزمن بفيلسوف الضاد وشاعرها المعرى ، ورأى كيف تسنم جناح هضبة المجد بأمته الباكستان وأحلها أعلى قممها وأرفعها سموقاً وعظمة ما قال هذا البيت :

وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى   بأن قرارات الرجال وهودها

ومن هنا طاب لى أن يدور حديثى فى تحية عيد استقلال الباكستان على صاحب الفضل الأول والأخير فى هذا الاستقلال الضخم المتيد .

فالحديث عن جناح إذن هو الحديث عن الباكستان ، فهما اسمان مترادفان يتواردان على مدلول واحد من العمل الخالد والمجهود المعظم .

سمعت عن منشئ الباكستان العجب العجاب من أحاديث البطولة والتفوق ، ثم أتيح لى شرف الصلة الوثيقة به ، وأسعدنى بزيارة كريمة فى بيتى ، فشهدت عن كثب هذه الشخصية الفريدة ؛ وتحدثت إليه وتحدث إلىّ فى فنون شتى من ألوان الحديث لمست خلالها تلكم المثل العالية فى الوطنية الممتازة ، والسيرة العامرة بمعجزات الجهاد .

إيمان عميق ، وعزيمة غلابة ، ونضال كريم ، يترجمها مع حديث القائد الأعظم هذا البريق الحاد المتدفق من عينيه النفاذتين ، ثم هذه التجاعيد المرسومة على وجهه الدقيق التى تلخص جهاده الطويل المرير فى جمع شتات قومه ودعم استقلال دولته .

عامان مرا على ميلاد هذه الأمة الفتية ؛ فنى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ أشرقت الباكستان فى الأفق الدولى دولة مستقلة

(*) ألقيت هـذه الكلمة فى الاحتفال الكبير الذى أقامته جمعية الشبان المسلمين احتفالا بعيد استقلال الباكستان .

من الأرض التي نحن إليها — فلم لا نقدم على ذلك ؟

وكان أن دخل عدد من المهاجرين في دين الله أفواجاً منهم اليهودي والارثوذكسي والحر العقيدة ، وفيهم التاجر والمالي والفنان ، منهم من آمن بحق ومنهم آمن ظاهرياً وبقي على دينه الأصلي ولكنهم جميعاً تسموا بأسماء تركية وأخرى إسلامية وسجلوا ذلك على أنفسهم فأصبحت معاملاتهم وتصرفاتهم خاضعة لصفتهم الجديدة وشخصيتهم التي أخذوها وبهذا ضمنوا كاخوانهم المسلمين البقاء في تركيا والحصول على تبعية خاصة وتنازلوا عن أوراق « نانسن » وقواعدها ومضايقاتها وفي ذلك كله راحة كبرى واستقرار لهم .

ومن العائلات التي قذفت بها ثورة ١٩١٧ إلى الهجرة عائلة من أشراف مدينة تفليس تعرفت إليها بمدينة استانبول وارتبطت منها بروابط الصداقة والمودة الدائمة وكان تركها لموطنها الأصلي شاملا أي كان بالخدم والاتباع صغاراً وكباراً وكانت إقامتها في مدينة استانبول ثم نقلت إلى ضاحية على الشاطىء الأسيوي . وكان منزل هذه الجماعة قطعة صغيرة من أراضي جورجيا الشهيدة يجمع كل ما في الروح القوقازية من مرح وسرور وحيوية مع أدب جم وحساسية متناهية وعطف على الفقير وتواضع مع الناس بغير تبذل وكانت مظاهر الكرم والرغبة في إدخال السرور واراحة على الضيوف من الأمور الثابتة الراسخة التي يقوم بها الصغير قبل الكبير أو الخادم عند غياب السيد ، وتفليس ملتقى الشرق مع الغرب بل هي قطعة من هذا الشرق الأوسط ارتبطنا بها خلال القرون الماضية ، لا يفصلنا عنا فاصل .

ومن منا لم يسمع بمدينة مراغه وعلمائها أو بردعة[1] وما كان عليه في الماضي وهذه الأنهار المنحدرة من جبال قفقاسيا أو من جبال آسيا الصغرى يعرفها مؤرخو العرب ويتحدث عنها مؤلفوهم ويشاء القدر أن تلتقي الأنهر وتصب في بحر قزوين . فالصلات بيننا وبين تفليس كانت قائمة مستمرة ولم يقطعها إلا مجيء الروس في غفلة من الزمن وقطعهم لهذه البلاد وحرماننا منهم وحرمانهم منا . فالوصل حالة طبيعية والقطع الروسي حالة غير طبيعية : نتساءل إلى متى تدوم ؟ ولذلك تشعر أنك لست غريباً عن هؤلاء القوم من أهل تفليس حيث تطل جبال قفقاسيا من الشمال وحيث تظهر في أحيائها المنابر وبقايا المساجد التي كانت يوماً ما عامرة .

لقد أنسنا بالأيام والليالي التي قضيناها مع القوم بل سعدنا بها وكان بالمنزل الذي يقع على شاطىء بحر مرمرة وكيل يدعى قافتراز نشأ أرثوذكسياً على مذهب كنيسة جورجيا وانتهى به المطاف أن دخل وتسمى باسم تركي ، وكان يعامل كأحد أفراد العائلة ، لا يرد له طلب ولا يجنح بطبعه إلى شدة أو إلحاح ؛ فهو جزء من البيت الذي اعتاد عليه في تفليس واستمر على العيش فيه بتركيا لا فارق بين الحالين سوى السنوات تمضي سراعاً .

كان محدثنا ابقاً له مكانه على المائدة الرئيسية : يشرب الأنخاب ويحضر لكل ضيف كلمة طيبة يلقيها بأسلوبه الخطابي مرحباً بالضيف هاتفاً باسمه ولا تنسى أن الموائد تبدأ من الثامنة ولا تنتهي إلا عند انتصاف الليل ، كانت تمد بالردهة الكبرى شتاء ، وفي الحديقة تحت ظلال الأشجار المطلة على البحر صيفاً ، حيث تكشف وأنت جالس مناظر جزر الأمراء (برينكبو) ، ومرت الأيام واعتدنا اللغة الكرجية وألفاظ التحية بها ، وأعقب الصيف شتاء وجاءت السنوات تترى . وفي يوم أيام الصيف ١٩٣٤ توفي هذا الرجل الذي أمضى حياته مع أهل هذا البيت الكريم .

وكانت السيدة الفاضلة تعرف قدر إيمانه وتمسكه ، فأمرت بأن يؤتى بقسيس أرثوذكسي وأن يقيم مراسم الصلاة ليلا ، وأوقدت الشموع وسهر أهل البيت يرتلون الصلاة وينشدون ترانيم بلاد الكرج بلسان أوطانهم ، حتى انتهى الأمر عند مطلع الفجر ، وانصرف رجال الدين وقد نفحتهم بمبلغ لا يستهان به . وكان خروجهم من المنزل تحت جنح الظلام في قارب أعد لهم لينقلهم إلى المرسى المجاور حتى لا ينتبه لقدمهم ومسيرهم أهل القرية .

وفي الصباح المبكر جاء مختار القرية ومعه الهيئة الاختيارية من أهل بوستنجي ومعهم الخطيب والإمام ، وتسلموا جثمان الوكيل وتولوا غسله وتكفينه على سنة النبي العربي وتعاليم الإسلام ،

(١) ذكر صاحب تجارب الأمم في حوادث سنة ٣٣٢ هـ خبر مجيء الروس واحتلالهم بردعة ثم طردهم منها وتسمى الآن على الخرائط Berada ويسمى نهر الترثور Terter

هذا إن الناس يؤكدون أن زعيم روسيا من جورجيا والحقيقة أن والدته كرجية أما والده فهو من الشمال من أقليم « استوبا » وهو الذى يطلق عليه الجبليون « قوشحا » وهذا الصديق من أهل هذا الأقليم ويقول إن غالبية « الأساتين » مسلمون ويغلب عليهم التشيع وأن والد الزعيم البلشفي كان مسلماً شيعياً وأمه كرجية مسيحية ولما مات أبوه أرادت أن تجعل منه قسيساً فادخلته مدرسة دينية : فخرج منها يدعو إلى الثورة .

كنت فى أواخر عام ١٩٢٨ بمدينة استانبول بين القارتين أوروبا وآسيا على ضفاف البوسفور ومرمرة حيث يلتقى البحران وكان قد مضى تسعة أعوام أو عشرة على إمضاء هدنة الحرب الأولى ، ومرأ كثر من ذلك على قيام الثورة الروسية الكبرى التى حررت الملايين من البشر فى زعمها وسببت تشتيت الآلاف من الناس ففر المرء من موطنه ومن أمه وأبيه والتمس الخلاص من الموت ، فكانت استانبول أول مرحلة من مراحل الهجرة الطويلة التى بدأت عام ١٩١٨ ولم تنته بعد .

وكان المهاجرون يفضلون العاصمة التركية القديمة لا لأنها بقعة من أجل بقاع الأرض فحسب بل لأن من بينهم من هم من أصحاب العقول أى الفكر ومن هم من أصحاب القلوب أى العاطفة ، فالأوائل يفضلون مركزاً قريباً يرابضون فيه للمراقبة وتلمس الأخبار فى بلادهم أما أصحاب العاطفة فهم الذين لا يصدقون بوقوع ما قد حدث ولايسلمون بما قد رأته أعينهم ولمسته أيديهم ، إذ ليست الثورة عندهم إلا كحلم من الأحلام ، فمثلهم ممن طالت به الغربة كمثل أهل الكهف « إذ يتساءلون بينهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » كذلك هم تمرّ بهم الأيام والشهور والسنوات وهم فى حلم دائم ينتظرون اليقظة لتأتى إليهم بالحقيقة أو هم يسرح بهم الوهم فيقولون : « سنفتح أعيننا يوماً لنعود إلى بلادنا وأعز شىء لدينا ولن نترك استانبول أبداً لأننا الطليعة الأولى التى ستترك أرض المهجر وتستأنف حياتها الأولى بأرض الوطن يوم يزول حكم البلاشفة وليأت من بعدنا من يشاء » .

تلك كانت أمانيهم وهذه كانت آمالهم تقرأها مرسومة واضحة فى عيون الفريق الأكبر من مهاجرى روسيا سواء من موسكو أو شبه جزيرة القريم أو بلاد القوقاز . رأيتهم وعاشرتهم وصادقتهم وأنست بهم فى العاصمة القديمة للدولة العثمانية ، كانوا من أجناس وأعمار مختلفة ولم يكونوا من طبقة أو فئة واحدة فنقول النبلاء مثلا أو الرأسماليين أو التجار أو الصناع أى الذين أضرت بهم الثورة بل كان بينهم العمال والزارعون والخدام ، لم يكونوا من جنس واحد أو وطن واحد أو دين واحد بل كانوا يهوداً ونصارى ومسلمين كانوا شيعة وسنية : فهم مع اختلاف أديانهم وطبقاتهم وأجناسهم ومراتبهم يمثلون دنيا بأكملها لاوطناً واحدا بل يمثلون قارة من القارات .

وكانوا مع اختلافهم هذا وتباين مذاهبهم السياسية والفكرية تجمعهم عقيدة واحدة وأمل ثابت وفكرة راسخة : هى أنهم مهما طال بهم الزمن وأن تقطعت بهم الأسباب سيعودون يوماً ما إلى تلك الأرض الشرود التى ولدوا عليها ونشأوا بها ، والتى ذهبت من بين أيديهم فصارت حلماً فى أذهانهم يمثله الحنين الدائم والذكريات الحائمة على صدورهم وخفقات القلوب لدى أى خبر يأتى من عزيز فى بلاد لا طريق للوصول إليها .

***

وكانت الحكومة التركية قد أمضت مع الحكومة السوفيتية الروسية اتفاقاً للجنسية جعلت فيه نصاً يخول كل مسلم من مسلمى روسيا لجأ إلى الأراضى التركية الحق فى اختيار الجنسية التركية وحرمت على اللاجئين من غير المسلمين هذا الاختيار فكان من نتيجة ذلك أن حصل المسلمون من المهاجرين على تبعية البلاد التى استوطنوها وتمتعوا بحقوق المواطن التركى بينما بقى الآف غيرهم يحملون جوازات السفر التى أطلقوا عليها اسم « نانسن » والتى تجعلهم عرضة للنفى والتشريد فى أى وقت — وبمرور الزمن تبين لفريق كبير من المهاجرين هذا النص فقالوا لأنفسهم إن كل مهاجر من أصل روسى أو من الأجناس التى خضعت لروسيا ينشرح صدره للاسلام ويشهر اعتناقه له ، يكتسب تواً الجنسية التركية ويصبح مالكاً بتلك الأرض الطيبة التى تفيض عسلاً ولبناً حيث المناظر الخلابة والمياه العذبة والطيور المغردة وحيث الحياة اللينة السهلة التى تملى ما نشتهى ، وأهم من كل ذلك العيش فى عالم قريب

من الأرض التى نحن إليها — فلم لا نقدم على ذلك ؟

وكان أن دخل عدد من الهاجرين فى دين الله أفواجاً منهم اليهودى والارثوذ كسى والحر المقيدة ، وفيهم التاجر والمالى والفنان ، منهم من آمن بحق ومنهم آمن ظاهرياً وبق على دينه الأصلى ولـكنهم جميعاً تسموا بأسماء تركية وأخرى إسلامية وسجلوا ذلك على أنفسهم فأصبحت معاملاتهم وتصرفاتهم خاضعة لصفتهم الجديدة وشخصيتهم التى أخذوها وبهذا ضمنوا كاخوانهم السلمين البقاء فى تركيا والحصول على تبعية خاصة وتنازلوا عن أوراق « نانسن » وقواعدها ومضايقاتها وفى ذلك كله راحة كبرى واستقرار لهم .

ومن العائلات التى قذفت بها ثورة ١٩١٧ إلى المهجرة عائلة من أشراف مدينة تفليس تعرفت إليها بمدينة استانبول وارتبطت منها بروابط الصداقة والمودة الدائمة وكان تركها لموطنها الأصلى شاملا أى كان بالخدم والاتباع صغاراً وكباراً وكانت إقامتها فى مدينة استانبول ثم نقلت إلى ضاحية على الشاطىء الأسيوى . وكان منزل هذه الجماعة قطعة صغيرة من أراضى جورجيا الشهيدة يجمع كل ما فى الروح القوقازية من مرح وسرور وحيوية مع أدب جم وحساسية متناهية وعطف على الفقير وتواضع مع الناس بغير تبذل وكانت مظاهر الكرم والرغبة فى إدخال السرور واراحة على الضيوف من الأمور الثابتة الراسخة التى يقوم بها الصغير قبل الكبير أو الخادم عند غياب السيد ، وتفليس ملتقى الشرق مع الغرب بل هى قطعة من هذا الشرق الأوسط ارتبطنا بها خلال القرون الماضية ، لا يفصلنا عنا فاصل .

ومن منا لم يسمع بمدينة مراغه وعلمائها أو بردعة[1] وما كان عليه فى الماضى وهذه الأنهار المنحدرة من جبال قفقاسيا أو من جبال آسيا الصغرى يعرفها مؤرخو العرب ويتحدث عنها مؤلفوهم ويشاء القدر أن تلتق الأنهر وتصب فى بحر قزوين . فالصلات بيننا وبين تفليس كانت قائمة مستمرة ولم يقطعها إلا مجىء الروس فى غفلة من الزمن وقطعهم لهذه البلاد وحرماننا منهم وحرمانهم منا . فالوصل حالة طبيعية والقطع الروسى حالة غير طبيعية : نتساءل إلى متى تدوم ؟ ولذلك تشعر أنك لست غريباً عن هؤلاء القوم من أهل تفليس حيث تطل جبال قفقاسيا من الشمال وحيث تظهر فى أحيائها المنابر وبقايا المساجد التى كانت يوماً ما عامرة .

لقد أنسنا بالأيام والليالى التى قضيناها مع القوم بل سعدنا بها وكان بالمنزل الذى يقع على شاطىء بحر مرمرة وكيل يدعى قافتراز نشأ أرثوذكسياً على مذهب كنيسة جورجيا وانتهى به المطاف أن دخل وتسمى باسم تركى ، وكان يعامل كأحد أفراد العائلة ، لا يرد له طلب ولا يجنح بطبعه إلى شدة أو إلحاح ؛ فهو جزء من البيت الذى اعتاد عليه فى تفليس واستمر على العيش فيه بتركيا لا فارق بين الحالين سوى السنوات تمضى سراعاً .

كان محدثنا ابقاً له مكانه على المائدة الرئيسية : يشرب الأنخاب ويحضر لكل ضيف كلمة طيبة يلقيها بأسلوبه الخطابى مرحباً بالضيف هاتفاً باسمه ولا تنسى أن الموائد تبدأ من الثامنة ولا تنتهى إلا عند أنتصاف الليل ، كانت تمد بالردهة الكبرى شتاء ، وفى الحديقة تحت ظلال الأشجار المطلة على البحر صيفاً ، حيث تكشف وأنت جالس مناظر جزر الأمراء (برينكبو) ، ومرت الأيام واعتدنا اللغة الكرجية وألفاظ التحية بها ، وأعقب الصيف شتاء وجاءت السنوات تترى . وفى يوم أيام الصيف ١٩٣٤ توفى هذا الرجل الذى أمضى حياته مع أهل هذا البيت الكريم .

وكانت السيدة الفاضلة تعرف قدر إيمانه وتمسكه ، فأمرت بأن يؤتى بقسيس أرثوذكسى وأن يقيم مراسم الصلاة ليلا ، وأوقدت الشموع وسهر أهل البيت يرتلون الصلاة وينشدون ترانيم بلاد الكرج بلسان أوطانهم ، حتى انتهى الأمر عند مطلع الفجر ، وانصرف رجال الدين وقد نفحتهم بمبلغ لا يستهان به . وكان خروجهم من المنزل تحت جنح الظلام فى قارب أعد لهم لينقلهم إلى المرسى المجاور حتى لا ينتبه لقدومهم ومسيرهم أهل القرية .

وفى الصباح المبكر جاء مختار القرية ومعه الهيئة الاختيارية من أهل يوستنجى ومعهم الخطيب والإمام ، وتسلموا جثمان الوكيل وتولوا غسله وتكفينه على سنة النبى العربى وتعاليم الإسلام ،

(١) ذكر صاحب تجارب الأمم فى حوادث سنة ٣٣٢ هـ خبر مجىء الروس واحتلالهم بردعة ثم طردهم منها وتسمى الآن على الخرائط Berada ويسمى نهر الترثور Terter

وساروا به فى جنازة محمولاً فى نعش على الأعناق ، حتى أتوا المسجد فصلوا عليه صلاة المسلمين ، وقاموا بدفنه فى قبور المسلمين وانصرفوا بعد أن قدموا تعازيهم لأهل الفقيد والسيدة الفاضلة

وكانت السيدة على شيء كبير من مكارم الأخلاق ، يغلب عليها الحياء ، وتخشى أن تجرح الناس فى عواطفهم وأفكارهم ، فاستعملت الحيلة مع مختار القرية وإمامها ، ووسطت من حادثهم برفق وتؤدة ، وطالبت إليهم أن يعلموها عن رسوم الحكومة وتكاليف الجنازة ، وما يطلبه أهل المسجد الذى أقيمت الصلاة فيه ، وما تسكلفته البلدية من ثمن للكفن والغسل ومكان للدفن فدهشت السيدة حينما تقدم كبير القرية وقرر أمامها : أن القرية لاتطلب شيئاً وأن الجماعة من الرجال الذين حملوا النعش متطوعون وأن ما قام به إمام المسجد وخطيبه إنما هو واجب عليهم إزاء كل مسلم ، وأن هذا البلد ليرحب بأن يدفن فى ثراه رجل نطق بالشهادتين وأتى إلى بلادهم لاجئاً لحباه الله بنور الإسلام والهداية .

ونظرت السيدة الفاضلة إلينا نحن معاشر المسلمين وقد أتمت حديثها ، وقامت من مقعدها وأخذت حفنة من تراب الحديقة وقالت : هذه الأرض الطيبة فليباركها الله ، لقد حمتنا بعد جور وأنقذتنا من ظلم ، أما إن أر ما رأيت من أهل الإسلام وما بذلوه لغريب ليس منهم ، فإنى لولا قدم الإسم الذى أحمله لأعلنت اليوم إسلامى ودخلت بينكم . إننى أفهم الاذا لاتدخل الشيوعية بينكم ...

أحمد رمزى

المراجع :

(١) راجع فتوح البلدان فى باب فتوح أرمينية ص ١٩٨ وفتح أذربيجان ص ٣٢١

(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى مادة أذربيجان .

(٣) يقول بارتولد كاتب مقالة ترك فى دائرة المعارف الإسلامية :

« إن أهالى ترك أسلموا فى القرن الثامن الهجرى » . ونهر ترك فى شمالى جبال القوقاز تقع على جانبيه جمهورية القاباردای .

(٤) ذكر ابن خلدون فى تاريخه ص ٣٨٣ الجزء ٢ طبعه :

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم فى غزواتهم . فكانوا يفرون منهم حتى كمنوا لهم فى بعض الغياض فقتلوا منهم فتجاسروا على حربهم .

(٥) اليعقوبى جزء ٢ ص ١٤٥

كتب عثمان إلى سلمان يأمره على أرمينية فسار حتى أتى البيلقان ، فخرج إليه أهلها فصالحوه ومضى حتى أتى برذعة فصالحه أهلها على شيء معلوم . ونفذ سلمان إلى شروان (على بحر قزوين) فصالحه ملكها ، ثم سار حتى أتى أرض مسقط وصالح أهلها وفعل مثل ذلك ملك اللكز (وقد يكونوا Lesginky) .

(٦) المسعودى ص ١٧٢ ج ١

كانت الأبخاز والخزرية يؤدون الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل .

وفى ص ٧٣ ج :

وهؤلاء الضبارية (من سكان جنوب القوقاز) يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد بن مضر وأنهم فخذ من عقيل سكنوا هنالك فى قديم الزمن وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم

جيوفانى بوكاشـــيو

للسيدة الفاضلة ماهرة النقشبندى

١٣١٣ — ١٣٧٥

ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣، حينما كان والده فى زيارة لتلك المدينة فى مهمة تجارية . فقد أحب الوالد فتاة فرنسية تدعى « جان » ، وكان جيوفانى ثمرة هذا الحب الجامح ، ولم يعرف من حنان هذه الأم أو ذكرياتها سوى بعض الحروف المتشابهة التى يحملها اسمه من اسمها ، إذ عاد به والده إلى فلورنسا بعد سنة من ولادته ، وتزوج مباشرة بفتاة اسمها « مرغريتا » ولدت له ولداً شرعياً سماه « فرنسسكو » . لقد كانت طفولته خالية من الحنان والرحمة والرعاية ، فماتت فى نفسه النفحة المعانى الإنسانية فى الحياة لأنه لم يشعر بها ، وهذا يفسر من ناحية نفسية قسوته الشديدة وتهكمه المرير وعبثه بالفضائل المعنوية التى يعلم أن البشر لا يعرفونها أبداً ، فى قصصه ، وفى الأشخاص الذين تتصل بهم تلك القصص من قريب أو بعيد .

وقد قضى وقتاً غير يسير من طفولته فى تسكانيا ، ووقتاً فى مسقط رأس والده ، وحيناً فى ضواحى فلورنسا ، وخاصة فى التلال حول فيزول ، حيث كتب كتابه العظيم « دى كامرون » وأعماله الأدبية الأخرى . وأرسله أبوه إلى « نابولى » وهو لا يزال شاباً فى الحادية والعشرين من عمره ليتعلم مهنة تكون عوناً له على حياته المقبلة . وهناك فى تلك المدينة الساحرة ، التقى صبيحة يوم السبت — المقدس فى كنيسة القديس لورنزو — فياميتا الابنة غير الشرعية للملك روبرت ملك نابولى الملقب « بالعاقل » ، فأحبها من النظرة الأولى حباً ملك عليه قلبه وحياته وجعله مسلوب اللب لا يعيش إلا لأجلها مدة اثنتى عشرة سنة ، حتى ماتت عام ١٣٤٨ فى الوباء المعروف فى التاريخ الأوربى بالموت الأسود .

كان حبه يشابه فى شدته حب بترارك للورا ، وقد أوحى إليه هذا الوله العنيف جميع أعماله الأدبية الأولى ، ومن بينها أول قصة سيكولوجية فى التاريخ سماها « فياميتا المحبوبة » .

وظهر ميله الأدبى المبكر وهو فى نابولى ، فرأى والده أن يوافق على رغبته فى تعلم القانون ، وأن يترك ما كان فيه ، ولكن إفلاس والده المالى ، وعودته مضطراً إلى فلورنسا عام ١٣٤١ ، أعاده إلى الأدب وحال بينه وبين المضى فى دراسة القانون .

وبدأ فى نابولى آثاراً أدبية أتمها فى فلورنسا منها « فيلو كولو » و « فيلوستراتو » و « تسيد » ؛ وزاد على تلك الآثار « اميتو » و « فياميتا » و « نتفال فينسالانو » . وعاد بعد ذلك إلى نابولى . أما فياميتا ، فقد كان قلبها يخفق بحب غيره حتى قبل مغادرته نابولى . والمعتقد أنها توفيت سنة ١٣٤٨ فى وباء الموت الأسود المروع الذى يعتبر نهاية العصور الوسيطة فى التاريخ ، فقد أهلك ثلاثة من كل خمسة أشخاص فى فلورنسا ونابولى ومختلف بقاع أوربا وانجلترا ، فكان موتها ضربة أليمة لقلبه المعذب . وقد خلدها فى الفصل الأول الذى يفتتح به كتابه العظيم « دى كامرون » إذ يعترف أن هذا الحب هو الذى دفعه إلى كتابة هذا الأثر الخالد ، وفى القصص التى كتبها سابقاً يعود إليها فصلا فصلا ، فيشيع فى جوها حب فياميتا واللوعة على فراقها والحنين إليها .

لقد كان حبه لفياميتا الأساس لجميع أعماله الأدبية ، حتى رأى بترارك فنشأت بينهما مودة متبادلة كانت عوناً له على تناسى بعض آلامه وعلى شفاء بعض الجراح العميقة التى سببها موتها .

لقد مات الحس المرهف فى خياله ، وخبا النور الذى كان يشرق بها بصيرته فى شمس الحب ، فتبلد حسه ، وتحجرت عواطفه ، وانتهت أجمل فترة من فترات الإلهام ، فكتب بعد « دى كامرون » كتابه « كاربا كشيو » وهو مجموعة من الهجاء المقذع ما رأته لغة من اللغات ، صب جام غضبه فيه على الدنيا التى حرمته الحب وعذبته بقسوتها ...

ثم هدأت الثورة قليلا فى عواطفه ، ومال من تلقاء نفسه وبتشجيع من صديقه بترارك إلى نوع من الاستقرار وتناسى الماضى ، فأخذ يدرس الآداب اللاتينية والإغريقية ، وكتب كتابه « تاريخ حياة دانتى » ، وأهدى نسخة من « الكوميديا الإلهية » إلى صديقه بترارك ، وأهدى إليه بترارك فى مقابل ذلك مجموعة خطية من إلياذة هوميروس .

لقد رأى بترارك المرة الأولى فى ربيع عام ١٣٥١ فى مدينة

بادوا ، حيث ذهب إليه يرحب به باسم مدينة فلورنسا ليعود من منفاه . فشاهد حماسه الشديد للآداب الكلاسيكية أو الدراسات القديمة ، وعدم رضاه عن الأدب الإيطالي ، وقد كان لذلك ، لسوء الحظ الأثر الفعال في نفس بوكاشيو ، فترك العناية بالأدب المعاصر ، وقصر مجهوده الأدبي على دراسة آداب اللغة اللاتينية وكل ما يتصل بها .

لقد كان بوكاشيو أديباً أصيلا ، وفناناً مبدعاً ، وفلتة نادرة من فلتات الذكاء التي تراها الإنسانية في سيرها الطويل في فترات متباعدة جداً ، وفي أشخاص تخلقهم القدرة المبدعة لعمل يحمله الزمن إلى ذروة الخلود . لقد خلق في كتابه « دي كامرون » عالماً جيلا يموج بالحركة والإحساس العميق . فهو يجلس في عالم الخلود الأدبي إلى جانب دانتي وتشوسر وشكسبير . وقلما عرف التاريخ الأدبي فناناً مرهف الحس يجمع إلى فنه علماً غزيراً وجلداً على دراسات مضنية تتطلب صبراً جميلا . ليس في مقدورنا أن نزعم أن بوكاشيو كان من هذا الطراز النادر ، كما أنه ليس من الإنصاف أن نبخس مؤلفاته في اللغة اللاتينية حقها من التقدير ، فقد كانت دائرة معارف الأدباء ومعجمهم في أوائل عصر النهضة ، وهو وإن لم يبذل في تأليفها أكثر من مجهود الجمع والترتيب ، كان بجلده الرائع وصبره وأناته الوحيد الذي حفظ للعالم قصائد هوميروس .

إن إيطاليا وأوربا مدينتان لبوكاشيو بحفظ آثار أعظم شاعر تفخر به الأجيال ... لقد بذل بترارك مجهوداً في جمع تلك القصائد التي لم يكن في مقدور أحد في أوربا قراءتها في اللغة اليونانية ، ولكن بوكاشيو هو الذي أخذ تلك القصائد وراح يراجعها كلمة كلمة ويعيد كتابتها مستعيناً بليون بلاتوس الذي كان يلفظ له حروف الكلمات اليونانية ، وبذلك تمكن بوكاشيو من ترجمتها بأسرها إلى اللسان اللاتيني .

كانت حياته الخاصة سلسلة من الآلام والعذاب ، ولم يكن يخفف من قسوتها عليه غير العطف الذي كان يغمره به بترارك وزيارته لأسرة هذا الصديق . كان معدماً ينغص عليه الحياة القاسية خوف وتشاؤم من الموت ومن المصير المجهول في العالم الآخر ، ذلك الخوف الذي استطاع بترارك أن يخفف شيئاً من وقعه عليه ويهدئ قليلا من سواد أفكاره . كان مهملا في زمانه لا يعرف أحداً . وابتسم الحظ له في أخريات أيامه ، فاختير لملء أول كرسي في جامعة فلورنسا أسس باسم دانتي ، وكأنما جاء تكريم دانتي في الوقت المناسب لتخفيف وطأة الفقر ، وراح يحاضر عن « الكوميديا الإلهية » ويدافع عن شعر دانتي ، ذلك الشعر الذي أحبه وتعصب له حتى مع صديقه بترارك . وألقى محاضرته الأولى في شهر تشرين الأول من عام ١٣٧٣ ، وكان في الستين من عمره ، واستمر يحاضر حتى بلغ النشيد السابع عشر من الجحيم في الكوميديا الإلهية ، فداهمه مرض شديد أقعده عن العمل ، وبقي يعاني سكرات الموت حتى اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٣٧٦ ، فأراحه الموت من عذاب الحياة بعد أن ذاق حسرة موت صديقه بترارك في صيف ١٣٧٤ .

***

لقد ذكرنا فيما مضى أن جميع ما كتبه بوكاشيو في اللغة الإيطالية كان من وحي فياميتا التي أحبها ، ففي الصفحات الأولى من كتابه « دي كامرون » نرى أنه لم ينس حب تلك الفتاة بعد أن كتب عنها — أو متأثراً بها — ستة مؤلفات نثرية ، فافتتح ذلك الكتاب المعظم بالإشارة إليها دون أن يذكر اسمها ، وختمه بنفس الطريقة والأسلوب . إن جميع الأسماء التي قص على لسانها في كتابه مائة قصة في عشرة أيام خيالية محضة ما عدا اسمها « فياميتا » . أما بوكاشيو ، فإنك لا تجد له ظلا في تلك القصص المائة . إن العجب ليأخذ الناقد الحصيف وهو يرسل رأيه ويتأمل كتابه الخالد « دي كامرون » الذي يمثل نبوغه ومجونه وتسامحه الكثير ومحبته العميقة للانسانية ، إذ يجده على النقيض في مؤلفاته الأخرى التي كتبها باللغة الإيطالية الدارجة ، لا يعبر كما عبرت عن حوادث حياته الخاصة ، وآرائه في الحياة وحبه وكرهه وسخطه.

إننا نتلاقى مع بوكاشيو في هذا الكتاب مرة أو مرتين ، ولكن في غير القصص التي يبدو غامضاً جداً في حوادثها وأشخاصها ورسم أهدافها .

إن تصميمه الفني لهذه القصص يدل على فن أصيل وعبقرية فذة وذكاء مفرط ، استطاع أن يشيع فيها عالماً تضطرم فيه الحياة بكل ما فيها من أحزان ومسرات ، وظواهر وأسرار . لقد نفذ

بعبقريته الفذة إلى ما وراء مظاهر الأشياء ، نفذ إلى أسرار النفس الإنسانية فصور أفراحها وأحزانها ، صفحها وانتقامها ، رحمتها وحقدها ، كرمها وبخلها ، تصويراً عميقاً شاملا ، لم تشذ عنه النفس ، ولم يتوار عنه ضمير ؛ فكان بذلك « شكسبير » عظيم الأثر في عصره ، وفي العصور التي حملها فجر الزمن من بعده ، يقرأها المرء فيجد فيها وصفاً لما يضطرع بين جنبيه من ألم وعذاب ، ومراح وسرور ، في أي عصر كان ، وهذا عمل العباقرة الخالدين !

إن كتاب ألف ليلة وليلة يتوارى خجلا أمام دى كامرون إذا وضعا في ميزان التقدير وتحت ضوء النقد . إن كتاب ألف ليلة وليلة لا يقوم في مجموعه إلا على ملك مستبد يقتل زوجاته لألم في نفسه من النساء ، وعلى شهرزاد الفتاة الأريبة التي تقص عليه تلك القصص ، ولا تهدف إلى غاية غير استبعاد الكارثة وإطالة أمد المقاومة والتعلق بآمال الغيب ، لعل المعجزة تتم فتنجو بحياتها ، ولكن هذا القلق لا يلبث أن يتلاشى رويداً رويداً من نفسها بحكم ما تثيره قصصها من اللذة في نفس الملك شهريار . أما دى كامرون ، فتقوم حوادثه على ثلاثة من الفتيان وسبع من الفتيات ولوا هاربين إلى سفوح تلال الفيزول من الموت الذى أباد مدناً بأسرها ... يروون تلك القصص تناسياً للآلام وتوارياً خلفها من خيال الموت !

تعتبر مقدمة اليوم الأول من قطع الوصف الخالدة في الآداب الإنسانية عامة صور فيها مدينة فلورنسا في قبضة الوباء المهلك عام ١٣٤٨ وقد أقفرت شوارعها من الحركة وتكدست الجثث هنا وهناك وقد فاحت منها الروائح المنكرة ، تصويراً لا يلحقه فيه لاحق ... صور ذلك الصمت الشامل الذى يغشى المدينة فلا يسمع فيها غير قهقهات خافتة من بقايا أجساد حطمت الكارثة كل ما فيها من حس إنساني وشعور نبيل ، وغير مجموعات أخرى تتحرك وقد خولطت عقولها وعبث بها الرعب فغدت كأشباح الموتى .

وفي صبيحة يوم من أيام الثلاثاء تلاقت في الصلاة سبع فتيات في كنيسة القديسة ماريا فلورنسا ، فاقترحت عليهن كبراهن بامبينا أن يرافقنها إلى الريف هرباً من الموت ، حيث يعشن في أحضان الطبيعة ، في قصر ريفي لإحداهن عيشة الفضيلة والانقطاع عن الناس فلا تصل إليهن يد الموت . وشاء المصادفات أن يدخل الكنيسة في تلك اللحظة ثلاثة شبان يتصل أكبرهم ببامبينا بصلة القرابة ، فاقترحت عليهم الانضمام إليهن فوافقوا مغتبطين .

وفي فجر اليوم التالي كانوا في طريقهم إلى ذلك الريف ، فاستقر بهم النوى في قصر جميل وارته الأشجار وقامت على جوانبه الحدائق الوارفة . واقترحت بامبينا أيضاً أن يختاروا في كل يوم رئيساً عليهم يكلون إليه أمرهم بحيث يكون كل منهم مسؤولاً بدوره . وتم انتخاب بامبينا في اليوم الأول فوضعوا على رأسها أكاليلا من أغصان شجر الغار . وبعد غروب الشمس أخذوا طريقهم إلى حقل غطى العشب الأخضر أرضه ... وهنالك جلسوا في دائرة وطلبت بامبينا ملكة ذلك اليوم أن يقص كل واحد قصة في كل يوم ، وقد رأوا في اقتراحها طرافة فوافقوا عليه ... وتلفتت بامبينا إلى بامفيلو الذى كان يجلس على يمينها وأمرته أن يبتدىء بقصة ، وهكذا تأخذ هذه القصص طريقها إلى الوجود .

من هذا النوع من التصميم تنبع قصص بوكاشيو في دى كامرون ، وهى تشابه قصص ألف ليلة وليلة في بقاء القاصين في مكان واحد في حقل العشب الأخضر في تلال الفيزول ، وفي غرفة الملك شهريار في بغداد . وهو جمود يضفي على قصص الكتابين لوناً من الكسل والخمول . أما قصص كانتبارى تشوسر فتتسم بالحركة والنشاط والحياة ، فالحجاج الذين يقصون القصص لهم سمات الأحياء تميزهم وتتعرف شخصياتهم في سهولة ويسر .

والضعف الذى نلمسه في قصص ديكامرون حين نقارنها بقصص كانتبارى لا يتصل بالخطوط الرئيسية في بنائها وإنما يتصل في الأشخاص . فأشخاص قصص كانتبارى يتحركون فيمثلون الحياة الاجتماعية الإنجليزية في القرن الرابع عشر ، لكل منهم شخصيته مستقلة واضحة المعالم . أما أشخاص بوكاشيو فليس في المقدور تمييز الواحد عن الآخر . وليس هنالك فارق بين لورتا وفيلومينا ، وربما حسبناها ديونيو أو فيلستراتو . أما فياميتا أقوى أشخاصه فإننا لا نراها وإنما نستمع إليه يصف جمالها وذكرياتها ويقحمها في مجال القصص من وقت إلى آخر .

(البقية في العدد القادم)

ماهرة النقشبندي

على هامش (دراسات عن المقدمة) :

رأي ابن خلدون عند الحصري

للأستاذ محمـــد سليم الرشدان

— ١ —

كتب الأستاذ أبو خلدون (ساطع الحصري بك) في العددين (٨١٩ و ٨٢٠) من الرسالة الزاهرة ، بحثاً قيماً أورده جواباً على سؤال تقدم به إليه الأستاذ الكبير (صاحب الرسالة) وكان مؤداه : « هل الشقاق طبع في العرب ؟ » . وقد تطرق الأستاذ الحصري في جوابه إلى الحديث عن ابن خلدون وعن رأيه في العرب الذي جاء في مقدمة تاريخه . ثم تدرج من خلال ذلك إلى الحديث عن كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) واستشهد من هذه الدراسات (بنموذجين من البراهين المسرودة فيها) . كان أحدهما من القسم الأول من المقدمة ، والثاني من القسم الأخير منها .

فأغراني حديث الأستاذ هناك أن أصطحب (دراساته) تلك ، لأجعلها شغل فراغي في المصيف الذي جنحت إليه ، فكانت خير مشغلة ، وكانت نعم الرفيق . وهأنذا أتقدم بهذه الكلمة المتواضعة ، تعليقاً على هامش تلك (الدراسات) فأقول :

لقد كان الوازع الذي حفز الأستاذ الحصري لإصدار هذا الكتاب — كما أحسست من دراسته — أنه أعجب بابن خلدون إعجاباً جمله يتكنى باسمه ، ولذلك يدافع عنه في رد هذا المأخذ الذي أخذه الناس عليه من رأيه (في العرب) . ولقد حاول جهد طاقته أن يظاهره بمظاهر الحدب الشفيق ، وأن يلبس أقواله زخرفاً يخضد معه كثيراً من هذه الأشواك التي يلمسها (ناتئة وخازة) كل من ينصرف إلى دراسة آراء هذا المؤرخ الفاضل في الأمة العربية منذ أقدم أزمانها إلى أيامه .

وإنك لتجد الأستاذ الحصري في (دراساته) يبذل غاية الجهد في هذا السبيل . فهو لا يدع حجة تلوح له من قريب أو بعيد إلا ساقها . فيستشهد بنص يورده كاتب فرنسي . كما يشير إلى آخر يورده كاتب تركي . ويقبل بعد هذا على كلام المؤرخ يستقرئه حيناً ، ويحمله فوق ما يحتمل أحايين . ثم لا يقف عند هذا الحد ، بل يلجأ إلى كلام تواطأت عليه العامة ، فيدور حوله طويلاً حتى يكاد يبرزه بين معظم هذه السطور التي أعدها للدفاع عن ابن خلدون . وهأنذا أسوق للقارئ الكريم طرفاً من دفاعه ، وأظهر مبلغ تساوقه مع الحقيقة ، مستشهداً — ما وسعني المقام — في استجلاء ما أشكل وانبهم ، بكلام المؤرخ نفسه كما أورده في مقدمته .

يقول الأستاذ الحصري عن كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي :

« إن كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون من الكلمات التي ولدت أغرب الالتباسات وأنتجت أسوأ النتائج . ذلك لأن ابن خلدون استعمل الكلمة المذكورة بمعنى البدو والأعراب ، خلافاً للمعنى الذي نفهمه منها الآن ، كما يتبين من الدلائل والقرائن الكثيرة المنبثة في جميع أقسام المقدمة ... (١) »

ويتحدث بعد هذا طويلاً عن دحض أقوال الكثير ممن تحاملوا على ابن خلدون بسبب خطئهم في فهم ما يقصده من كلمة (العرب) . ومن هؤلاء — على حد تعبيره — مدير المعارف العراقية الذي دعا إلى « حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية ، زاعماً أنه من الكافرين بالعروبة ... (٢) »

ثم يورد بعد ذلك ما يذكره علماء اللغة في تعريف كلمتي (العرب والأعراب) فيعقب عليه بقوله : « يظهر من ذلك أن مدلول كلمة العرب تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ ويمكننا أن نبين اتجاه هذا التطور بالصفات الثلاث التالية :

أولاً : كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم .

ثانياً : صار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية ...

ثالثاً : (وهنا موضع الشاهد) صار يشمل مدلول كلمة العرب سكنة الأمصار أيضاً ، بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية ، أو رجوع نسبهم إلى البادية ... (٣) »

وهكذا يحدد الحصري مدلول هذه الكلمة في صفات ثلاث

(١) ص ١٠٧ س ٣ ج ١ من كتاب (دراسات ..)
(٢) دراسات ص ص ١٠٧ س ١٤ ج ١
(٣) ص ١٠٨ س ١٥ ج ١

تطورت — كما يقول — مع أدوار التاريخ . ودعنى أيها القارئ الكريم أقف بك عند كل واحدة منها ، مبتدئاً - حسب الترتيب الذى سار عليه — بالأولى حيث يقول : « كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم . . » و (كان) هذه تحتمل من الزمكن ما نعيدها معه إلى إبان صدر الإسلام وما قبله ، حيث جعلها الأستاذ بداية التطور خلال أدوار التاريخ . ولو تساءلنا على ضوء هذا التحديد ، عما إذا ورد فى القرآن الكريم — وهو قاموس العربية — ما يؤيد قول الحصرى ! لألفينا الجواب بأن القرآن الكريم لم يخصص كلمة (العرب) للبدو ، وإنما خصص لهم غيرها حين يقول : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ... (١)) و (قالت الأعراب آمنا ... (٢)) . وهذا النبى صلوات الله عليه يقول : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ... (٣) » وما أظنه يقصد بالعربى (هنا) من كان مقيما فى البادية دون سواه ! وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول يوم السقيفة : « نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً ... وأكثر الناس ولادة فى العرب ... » وهو يقصد بالعرب أهل (مكة) . وهى حاضرة الجزيرة يومذاك .

وبما أن الأستاذ الحصرى لم يحدد زمناً يربط به تطور مدلول هذه الكلمة ، فالاعتراض عليه لا يتجاوز حد الافتراض . ولذلك فإننا نقف بهذا الذى أوردناه إلى جانب أول وصف لمدلول هذه الكلمة عنده ، ثم نترك للقارئ الكريم الحكم عليها . وننتقل إلى الصفة الثانية فنجده يقول فيها : « صار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية . . » ولا أظنه يقف ابن خلدون عند هذا التعريف . وإنه لو فعل ذلك لأقام الدليل بنفسه على بطلان ما يقوله فى دفاعه عنه . ولأثبت عندئذ أن ابن خلدون إنما قصد أهل الأمصار من العرب بقوله ، وهو عكس ما يريده ويبتغيه . إذن فلم يبق أمامنا غير التعريف الثالث ، وهو الذى يقول فيه : أن مدلول كلمة العرب « صار يشمل . . سكنة الأمصار بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية . . » وفى هذا الوصف ثالثة الأثافى ! فهو إن كان قد تطور خلال أدوار التاريخ ، فلا بد من أن يكون قد عاصر ابن خلدون أو تقدم عنه أو جاء بعده . فإن كانت الأولى أو الثانية ، فقد جعل قوله حجة عليه ، ولم تبق هنالك حاجة لإقامة برهان . وإن كانت الثالثة ، فقد أنطق ابن خلدون بالغيب ، وجعله يتحدث بلسان الزمن قبل أن يجيء . وهيهات أن يكون ذلك كذلك ؟!

وإليك أيها القارئ ما يجيبنا به الأستاذ على كل ما تقدم حين يقول : « ومما تجب ملاحظته أن هذا التطور لم يكن تاماً ولا قاطعاً .·. لأن الطور الأول لا يزال مستمراً فى استعمال العوام . . فقد تعود الناس فى جميع البلاد العربية استعمال كلمة (العرب) بمعنى البدوى والفلاح ... (١) »

ولا أدرى كيف (تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ) ثم نجد تطوره بعد ذلك (لم يكن تاماً ولا قاطعاً) !! بل يستمر الطور الأول م:- فى استعمال العوام إلى يوم الناس هذا !! وإنه ليلذ لى أن أتساءل فى هذا المقام : لماذا لم يظهر مثل هذا الالتباس فى مدلول كلمة العرب على أقلام المؤرخين ممن سبق ابن خلدون أو تأخر عنه ؟ ! ولماذا لم يظهر كذلك فى شعر الشعراء ممن تقدموه أو عاصروه ، ما دام هذا هو مدلول الكلمة منذ طورها الأول الذى كان فى بداية أدوار التاريخ ؟!

ويورد الحصرى بعد ذلك — تأييداً لابن خلدون — مثلاً شعبياً كثيراً ما تلوكه ألسنة العامة من أهل الحواضر ، فيوردونه شاهداً على فساد ذوق البدوى ، وهو قولهم : « الكل عند العرب صابون ... » وأشهد لقد سمعته كثيراً ولكن بتحريف بسيط ، فذكرنى بـ (غير عزيز !) ، وأعاد للنفس ذكريات مفزعة من الماضى الرهيب الذى توالى على الأمة العربية فصبرت عليه صبر الجبال ... أجل لقد سمعت هذا القول كما سمعه الحصرى فذكرنى بشيء غاب عنه تذكره ، ذكرنى بذلك الاستعباد الطويل الذى تقلبت هذه الأمة بشتى مطارقه ، يوم كان العربى فى حاضرته يضطر — كارهاً أو مختاراً — أن يتشبه بذلك المتسلط القاهر فيحا كيه فى عجمته ، ويماثله فى رطانته . يوم كان المليح فى عنجهيته يقف أمام هؤلاء الأعراب الذين يردون الحواضر ، فيتأذى بصره الترف برؤية شقائهم البادى من فتوق أسمالهم ، فلا يجد شتيمة يحقرهم بها ، فيتوسل إلى قرارة نفسه الرضوان ، أكثر من أن

(١) س التوبة آية ٩٧ (٢) س الحجرات آية ١٤
(٣) من خطبته فى حجة الوداع

(١) الجزء الأول من كتاب (دراسات . .) ص ١٠٩ س ٣

يردد على ملأ منهم قائلا : « عرب ! عرب ! » .

وإن كنت فى ريب من ذلك فسل من شئت : هل عسيت إن شاكسك رجل من أهل هذه الدساكر حتى بلغ منك ما تكره ثم أردت أن تثأر لنفسك منه ، فهل رأيتك تتمتم بأكثر من أن تقول له : « فلاح ! فلاح ! » إلا أن هذه قرينة تلك ، وكلتاهما مما خلفته لنا عصور الاستعباد الطويل ، وتلقفناه عن أفواه أولئك المستعبدين ، بعد أن يورد الأستاذ الحصرى هذا الشاهد يعلق عليه طويلا ويتحدث عن مبلغ تفشيه بين العامة فى شتى الأقطار ، وهذا أمر سلمنا له به ، ولعل فى ردنا عليه الكفاية . ثم ينتقل إلى الاستشهاد بأقوال كبار المؤرخين والباحثين ، ملتمساً فى ذلك ما يقوله شاهداً على صواب ما يورد . وإننى أتنـاول واحداً من هذه الأقوال الكثيرة ، فأتخذه شاهداً على عكس ما يقول ، وأؤكد له أن (الثعالبى والقالى وابن السكيت وابن الأثير) وغيرهم ممن استشهد بهم ، لم يخرجوا قيد أنملة عما تآلف عليه الناس منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم . إنهـم حين لا يفرقون بين باد وحاضر يقـولون : (عربا) وإذا ما أرادوا أهل البادية دون سواهم قالوا : (أعرابيا) أو (بدويا) . وهذا نص يورده الأستاذ يؤيدنى على ذلك ، وهو قوله : « وإننا نجد فى المثل السائر .. لابن الأثير .. ما يلى : (فإن قيل إن ذلك البدوى كان له ذلك طبعاً وخليقة ... فالجواب على ذلك أنى أقول : إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب (١)

أرأيت كيف يقفك عند قوله : (البدوى) حين أراده قبل أن يهجر باديته ، ثم يطلقها بعد ذلك حين لا يريد مثل هذا التحديد؟!

وليت شعرى كيف يرتضى الأستاذ الحصرى أن (يحصر) مثل هذا العدد الوافر من كرام المؤرخين ، وأن (يحصر) نفسه أيضاً فى حدود هذه الدائرة الضيقة حين يؤكد أنهم أرادوا جميعا بقولهم (العرب) أهل البادية فقط ؟! وبمـاذا سموا إذن — لله أبوهم — أهل الحواضر من عرب الشام والحجاز ومصر والعراق والمغرب والأندلس ؟! هل قالوا حاضرى أم حضرى أم كيف ؟! لقد توقعت أن أجد للأستاذ قولا مثل هذا ، فكنت أجد منه مولجا للاعتراض ، ولكنه لم يفعل بل ترك الأمر غامضاً ملتبساً ! وأن الأستاذ الحصرى بعد ذلك يتحدث عن ابن خلدون بما يؤكد

(١) الدراسات جـ ١ ص ١١١ س ١٤

(ما ذهبت إليه) غاية التأكيد . وذلك حين يقول : « لم يستعمل ابن خلدون فى المقدمة كلمة (الأعراب) و (الأعرابى) ، إلا قليلا جداً . فإنه قد استعمل كلمة (العرب) أو (العربى) فى نحو (٣٣٠) موضعاً ، فى حين أنه لم يستعمل كلمة (الأعراب والأعرابى) إلا فى بضعة مواضع ... (١) »

هو ذاك ! لأن الرجل أراد أن يسير على نهج زمانه ، وهو منهج كل زمان من أزمان العربية ، لذلك يطلق كلمة العرب على كل عربى من غير ما تخصيص ، ويخص أهل البادية — حين يريد أن يميزهم عن سواهم — بقوله : (الأعراب) . وهذا القرآن الكريم — وكان وما يزال (قرآنا عربيا غير ذى عوج) — وقف عند هذا التحديد بعينه ، وسار الناس بعد ذلك على مناهجه و (أرى) أن ابن خلدون ما تجاوز ذلك إلى سواه . .

ويأخذ الأستاذ الحصرى بعد هذا فى اقتباس الشواهد من المقدمة ، للتدليل على ما ذهب إليه ، فيقول : « لنبدأ من الفصل الذى يتضمن أقسى الأحكام وأعنف الحملات على (العرب) . فلنلاحظ الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون : « إن العرب إذا ما تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ، ولننعم النظر فى الأدلة التى يذكرها لتعليل وتأييد رأيه هذا : (فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ... فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى للقدر ، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ... والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ...) ومن البديهى أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام ، فلا مجال للشك فى أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات لم يفكر قط بأهل دمشق أو القاهرة ... بل إنما قصد أعراب البادية وحدهم ... (٢) »

والذى أقوله ، ويقوله ذلك الفصل بعينه ، يغاير ما أورده الأستاذ الحصرى ، ويؤكد أن ابن خلدون أراد البدو وغير البدو ، وأقول بتعبير آخر : إنه أراد العرب على اختلاف مشاربهم . وتتبين ذلك من قوله الذى يكمل به ذلك الفصل بعينه . فهو يقول بعد الكلام الذى استشهد به الحصرى (مباشرة) ما يلى : « فهم متنافسون فى الرئاسة ، فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ،

(١) الدراسات جـ ١ ص ١١٣ س ٣

(٢) الدراسات جـ ١ ص ١١٣ س ١٧ .

وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان ، كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه ، فاليمن قرارهم خراب ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والمغرب[1] » . فهل نتبين من ذلك كله أنهم البدو فقط ؟ ! وإذا كان الذين عمروا اليمن والشام والعراق وأفريقية والمغرب هم (البدو) ، فمن هم (العرب) إذن ؟ ! ثم يخطو الأستاذ الحصرى بعد ذلك خطوة لا تخلو من تعسف ، وهى أنه يصدر بحكم مبرم مؤداه أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) فى سائر فصول المقدمة غير (البدو) ، ولم يتجاوز ذلك إلى غيره قط . فيورد هذا بأن يقول : « إن ابن خلدون لم يستعمل كلمة (العرب) بمعنى البدو فى فصول الباب التى ذكرتها فحسب ، بل استعملها على نفس المنوال فى فصول الأبواب الأخرى أيضاً[2] »

وهكذا يحملنا الأستاذ فى حل ، لنلتمس ما يناقض دفاعه (فى سائر الفصول) ، بعد أن أكد — كما رأيت — أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) فى سائر الفصول سوى البدو وليس غيرا ويستشهد بعد هذا ببعض كلام ابن خلدون مقدماً له بما يأتى : « يوجد فى الباب الرابع أيضاً فصل خاص بالعرب ، وهو الفصل الذى يقرر : (أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل)[3] » . ثم يأتى على ذكر ما قاله ابن خلدون عن العرب فى هذا الباب فيقول : « والعرب إنما يراعون مراعى إبلهم خاصة ، ولا يبالون بالماء طاب أو خبث ... ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات[4] » .

ويعلق على ما سلف بما يلى : « يظهر من ذلك بكل وضوح أن العرب المقصودين فى هذا الفصل هم البدو الذين يعيشون فى القفار ولا يوجد فى هذا الفصل كلمة واحدة تنطبق على أهل الأمصار[5] »

وفى هذا المقام أيضاً استشهد من الفصل عينه ، مؤكداً أن فى هذا الفصل أكثر من (كلمة واحدة) تنطبق على العرب الأولين الذين خرجوا من الحجاز واليمن ، من مكة والمدينة والطائف وصنعاء وظفار وغيرها (وهى أمصار كلها !) بل خرجوا جميعاً من مدرسة محمد (ص) بعد أن قذف فى قلوبهم هذا الإيمان الراسخ ، فإذا هم يعلمون الحضارة لأهل الحضارة .

أجل ، تنطبق على هؤلاء بعينهم ، ويتضح ذلك مباشرة بعد آخر كلمة يوردها الأستاذ الحصرى فى النص الذى استشهد به من كلام ابن خلدون ، وذلك حين يقول : « وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس[1] » .

ألا ترى — يا أخى القارئ — صدق ما أشرت إليه من خلال هذا النص الذى (بُتر) أوله ليؤدى معنى غير معناه الذى أراده له صاحبه ؟ ! وهل اختط الكوفة والبصرة والقيروان إلا رجال أفذاذ من أقران (عمر ومعاوية وابن العاص) وغيرهم ممن ساسوا البدو والحضر فأحكموا السياسة ؟ !

ثم يتدرج الأستاذ الحصرى بعد كلام طويل إلى قوله : « ومما يزيد الأمر وضوحاً وقطعية أن ابن خلدون يعود إلى هذه القضية (أى أن العرب بمعنى البدو) فى بحث العلوم أيضاً ، إذ يقول بعد أن يشبه العلوم بالصنائع :(وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، وصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها) ... يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة (العرب) مرتين مقابلا لكلمة (الحضر) بشكل لا يترك مجالا للشك فى أنه يقصد منها (البدو)[2] » .

والذى أقوله : إن كلام ابن خلدون لا يدع مجالا للشك فيما يقصد . ويوضح لنا فى كلمات تلى (ما استشهد به الأستاذ الحصرى) ما يقصده من الكلمتين (العرب والحضر) . وهأنذا أورد قوله ليتضح وجه الصواب : « والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم فى معناهم من الموالى الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف[3] » .

أرأيت كيف كان يقصد بقوله (الحضر) غير العرب ، وأن العرب لديه هم العرب سواء سكنوا البادية أم الحاضرة ؟ !

ولما كان المقام لا يتسع لمناقشة جميع الشواهد التى أوردها الأستاذ الحصرى من كلام ابن خلدون ، لذلك أكتفى بهذا القدر الذى أوردته منها ، ملمحاً إلى أن جميع ما جاء فى هذا الصدد

(١) المقدمة ط مصطفى محمد سنة !! ص ١٥٠ س ١٦
(٢) دراسات ج ١ ص ١١٥ س ٨
(٣ ، ٤) دراسات ج ١ ص ١١٥ س ١٢ ، ١٨
(٥) دراسات ج ١ ص ١١٥ س ٢١

(١) المقدمة الطبعة السابقة ص ٣٥٩ س ١٢
(٢) دراسات ص ١١٦ س ١٩ ج ١ ط بيروت
(٣) المقدمة ص ٥٤٤ س ٧

من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٥ —

ونلاحظ أن أبا دلامة لم يكن يصله — غالباً — شيء من المال إلا بنادرة كما رأينا في قصة سلة الوصيف ، أو بحيلة كما سنرى الآن في قصته مع العباس بن محمد — عم المهدي — الذي كان من أبخل الناس :

دخل أبو دلامة يوماً على المهدي ، فحادثه ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم يصلك ؟ قال : إن أمنتني أخبرتك ، وإن أعفيتني فهو أحب إلي . قال : بل تخبرني وأنت آمن . قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بني العباس . قال : ومن هو؟ قال : عمك العباس بن محمد . فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جَـأْ(١) عنق الماص بظر أمه . فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تنحَّ يا عبد السوء . لا تحنثْ يمين مولاك وتنكث عهده وأمانه . فضحك المهدي وأمر الخادم فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبخل الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقال له المهدي : والله لو مت ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيته فأجازني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم. فانصرف أبو دلامة فخبر للعباس قصيدة ثم غدا بها عليه وأنشده :

قف بالديار وأيُّ الدهر لم تقفِ ... على المنازل بين الظهر(٢) والنجف

وما وقوفك في أطـــلال منزلة ... لولا الذي استدرجتْ من قلبك الكلف

إن كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها ... فلا وربك لا تشفيك من شغف

(١) جأ : اضرب .

(٢) الظهر : موضع . والنجف (بالتحريك) موضع بظهر الكوفة وهو دومة الجندل بينها ، وبالقرب منه أمير المؤمنين علي بن طالب .

لا يعدو ما ذكرته في مكانته من الحقيقة . وحسبك — في كشف الغطاء عنه — أن تواصل قراءة تلك النصوص في المقدمة عينها لينطق لك ذلك الكلام (المبتور) بأن ابن خلدون إنما عنى بقوله (العرب) ، العرب الذين يعرفهم الناس منذ خلق الله العرب في الناس !

وأما الكاتب الفرنسي الذي أشرت إليه في بداية هذه الكلمة وقلت إن الأستاذ الحصري استشهد به ، فهو الأستاذ (المرباني (١)) البارون (دوسلان) ، وقد ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية قبل ثمانين عاماً ، وقال فيها عن مدلول كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي :

Les arabes (Jbni Khaldoun) sont les arabes nomades (٢)

وترجمة ذلك : « أن عرب ابن خلدون هم الأعراب . . » .

كما أن الكاتب التركي الذي أشار إليه الأستاذ الحصري هو المؤرخ (جودت باشا) . وقد ترجم كلمة عرب — كما يقول الأستاذ في (دراساته) اعتماداً على ما فهم من كلام ابن خلدون ، فأثبتها : « في مواضع كثيرة على شكل (قبائل عرب) . . (١) » .

ومن هنا (أكاد) أجزم بأن الأستاذ الحصري إنما جاءه تابعهما الرأي الجديد نقلا عن هذين الكاتبين . وإنني لا أجد تعليلا (لوهمهما) هذا إلا أنهما أبصرا في بعض المواضع اقتران كلمة العرب بالإبل والخيام فحسبا أن عرب ابن خلدون ليسوا سوى أهل البادية من الأعراب . غير أن الحقيقة التي لا تغيب عن باحث هي أن ابن خلدون لم يكن يدقق في التمييز بين أهل البادية وأهل الحاضرة من العرب ، فكان يسميهم جميعاً (عرباً) على أنه كان يستعمل كلمة (الأعراب) أو (البدو) حين يريد أن يحصر مدلول كلامه في حدود معينة . وهذه الحقيقة مشاهدة في مقدمته ، وظهورها أتم وأبين في دراسات الأستاذ الحصري عن ابن خلدون ، وذلك حين يحصي عدد ما أورده ابن خلدون من كلا التعبيرين فيقول أنه ذكر العرب (كذا) مرة ، وذكر الأعراب (كذا) مرة . وقد ذكر ذلك وعلقت عليه في خلال ما أسلفت .

(البقية في العدد القادم)

محمد سليم الرشدان

ماجستير في الآداب واللغات السامية

(١) استعمل هذا اللفظ بمعنى (المستشرق) المرحوم النشاشيبي

(٢) Les Prolegomenes d.ibnl klaldoun vol 3 rag488

(١) دراسات ص ١٢٣ س ٢٠ ج١ ط بيروت

دَع ذا و قُل فى الذى قد فاز من مُضر
بالمكرمات وعز غـــير مقترَف[١]

هـــذى رسالة شيخ من بنى أسد
يهدى السلام إلى العباس فى الصحف

تخطها من جوارى المصر كاتبةٌ   قد طالما ضربت فى اللام والألف
وطالما اختلفت صيفاً وشاتيةً   إلى معلمها باللوح والكتِف

حتى إذا نهد الثديان وامتـــلأ
منها وخيفت على الإسراف والقرف[٢]

صينت ثلاث سنين ما ترى أحداً   كما يصون تجارٌ درة الصدف
فبينما الشيخ يهدى نحو مجلسه   مبادراً لصلاة الصبح بالسدف[٣]
حانت له لمحة منها منها فابصرها   مطلة بين سجفيها من الغرَف
نخر والله ما يدرى غداتئذ   أخر منكشفاً أم غير منكشف

وجاءه الناس أفواجاً بمــائهم
ليغسلوا الرجل المغشى بالنُّطف[٤]

ووسوسوا بقُران فى مسامعه   مخافة الجن والإنسان لم يخف
شيئاً ولكنه من حب جارية   أمسى وأصبح موقوفاً على التلف

قالوا : لك الويل ما أبصرت ؟ قلت لهم
تطلعتْ من أعالى القصر ذى الشرَف

فقلتُ – أيكمُ والله يأجرُه –   يعين قوته فيها على ضَعف
فقام شيخ بهيٌّ من رجالهمُ   قد طالما خدع الأقوام بالحِلف
فابتاعها لى بألفى درهم فأتى   بها إلىَّ فألقاها على كتفى

فبتُّ ألثمهـا طـــوراً وألزمها
طوراً وأصنع بعض الشىء فى اللحف

فبين[٥] ذاك كذا إذا جاء صاحبها
يبغى الدراهم بالميزان ذى الكفف

وذكَّرحق على زند[٦] وصاحبه   والحق فى طرف والطين فى طرف
وبين ذاك شهود لا يضرُّهمُ   أكنت معترفاً أم غير معترف
فإن يكن منك شىء فهو حقهمُ   أوْ لا فإنى مدفوع إلى التلف

(١) مقترف : مكتسب .
(٢) القرف : التهمة . (٣) السدف : الظلمة
(٤) النطف : جمع نطفة (بالضم) وقد مر أنها الماء الصافى قل أو كثر .
(٥) المشهور فى مثل هـذا أن يقال : فبينا ذاك كذا أو (بينما) وقد جاء بها أبو دلامة هنا على الأصل .
(٦) زند هو اسم أبى دلامة كما مر .

فضحك العباس وقال : ويحك أصادق أنت ؟ قال نعم والله . قال : يا غلام ادفع إليه ألفى درهم ثمنها . فأخذها ثم دخل على المهدى فأخبره القصة وما احتال له به . فأمر له المهدى بستة آلاف درهم وقال له المهدى كيف لا يضرهم ذلك ؟ قال : لأنى مُعدِم لا شىء عندى . وفى رواية : إن العباس بن محمد قال له : شاركنى فى هذه الجارية يا أبا دلامة . قال : أفعلُ ولكن على شريطة . قال : وما هى ؟ قال : الشركة لا تكون إلا مفاوضة[١] فاشتر معها أخرى، ليبعث كل منا إلى صاحبه ما عنده ، ويأخذ الأخرى مكانها ليلةً وليلة . فقال له العباس : قبحك الله وقبح ما جئت به ! خذ الدراهم لا بارك الله لك فيها وانصرف[٢] .

وإنما أوردنا هذه القصة بتمامها لكيلا نمسخها إذا اختصرناها فتفقدها كثيراً من جمالها : ولعلك تذكر أننا استشهدنا بها على وصول أبى دلامة إلى المال بأسلوب الاحتيال ، ولاسيما مع البخلاء من الناس .

والواقع أنه كان لا ينجو من نوادر أبى دلامة وهجائه إلا من أعطاه فأجزل عطيته . وإنه ليكون المرء أبغض الناس إلى قلبه ، فإن هو وصله بشىء أضحى أحبهم إليه . وكان الناس يفرون من هجاء أبى دلامة فرارهم من نوادره بهم ، فإذا تجرأ أحدهم على النيل منه أو ذمه عرف كيف يسلقه بلسانه الحاد .

دخل أبو دلامة على المهدى وعنده مُحرِز ومقاتل ابنا ذؤال يمانيانه على تقريبه أبا دلامة ويعيبانه عنده . فقال أبو دلامة :

ألا أيها المهدى هل أنت مخبرى   وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلى ؟
ألم ترحم الأَسْخَيْن من لحيتيهما   وكلتاهما فى طولها غيرُ طائل ؟
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مكرى   بحَلْقهما من محرِز ومقاتل ؟
فإن يأذن المهدى لى فيهما أقُلْ   مقالاً كوقع السيف بين المفاصل
وإلا[٣] تدعْنى والهمومُ تنوبنى   وقلبى من الملجين جمٌّ البلابل

فلم يدعه الخليفة للهموم تنوبه ، وإنما ساعده على الملجين فقال له يتم أسئلته : أو آخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يفديان بهما أعراضهما منك ؟ قال ذلك إلى أمير المؤمنين . فأخذها له منهما وأمسك عنهما[٤] .

(١) شركة المفاوضة هى الشركة العامة فى كل ما يملكه الشريكان .
(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢٦٥ .
(٣) فعل الشرط محذوف — أى وإلا تفعل تدعنى .
(٤) الأغانى ج ١٠ ص ٢٦١ .

فلا يُرضى المهدىَّ إذاً أن يسمع من أحد تجريحاً بشخص أبى دلامة لأنه واجدٌ فيه أنسه ومرحه ، وقابلٌ إياه على ما فيه من عيب ومنقصة ... ولا يُرضى أبا دلامة ويُسكتُ لسانه السليط إلا المالُ يُعطاه وفيراً !

وكما يهجو أبو دلامة مخلوقاً أملاً فى الوصول إلى بعض ماله ، تراه يمدح آخر للغرض ذاته . وقد ينتظر مطلوبه من سـواه كما حدث يوم دخـل أبو دلامة على المهدى وعنده شاعر ينشده . فقال له : ما ترى فيه ؟ قال : إنه قد جهد نفسه لك فاجهد نفسك له فقال المهدى : وأبيك إنها لـكلمة عذراء منك أحسبك تعرفه ! قال : لا والله ما عرفته ولا قلت أنا إلا حقاً . فأمر للشاعر بجائزة ، ولأبى دلامة بمثلها لحسن محضره[١] .

ولقد صدق أبو دلامة ، فما كان أطراؤه للشاعر عن معرفة سابقة به أو بعد وقوف على شىء من شعره — وإنما هى كلمة تعجب المهدى وتسر قلبه ، وهى — بعد ذلك — وسيلة هينة للوصول إلى شىء من المال الذى يجزى به الخليفة من كان لبقاً حديثهُ ، حاضرة بديهته ، سديداً جوابه .

وكما درس أبو دلامة نفسية المنصور فاستطاع أن يأخذ منه الجوائز السنية — على بخله — عرف كيف يفهم المهدى حق فهمه لـكى ينال منه — فى مختلف المناسبات — أكثر مما يحلم به . وتجده لذلك يحرص على إضحاك الخليفة الذى تفيض يداه كلما تهلل وجهه : خرج المهدى وعلى بن سليمان إلى الصيد ، فسنح لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الـكلاب وأجريت الخيل ، فرمى المهدىُّ ظبياً بسهم فصرعه ، ورمى علىّ بن سليمان فأصاب بعض الـكلاب فقتله . فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدى ظبياً شك بالسهم فؤادَهْ
وعلى بن سـليما نَ رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما ، كل امرىء يأكل زادَهْ !

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه ، وقال : صدق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سنية . ويقال : إن على بن سليمان لقب منذ ذلك اليوم « صائد الـكلب » وعلق به[٢] .

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٦٤ .
(٢) الأغانى ١٠ ص ٢٥٩ .

وما دام الخليفة يملأ عين أبى دلامة ويشبع بطنه ويعطيه من المال ما يجعله مغموراً بفضله ، فما على الظريف إلا الإخلاص فى طاعته ، والصدق فى محبته ، وإدخال السرور عليه ولو لم ينتظر منه شيئاً ، لأن فضله سابق عليه : لذلك كان أبو دلامة ينتهز الفرصة ليثبت أن تقريب الخليفة له مصيبٌ موضعه ، فهو الذى ينفس عنه كربه ، ويسرى عنه غمه ، ولو كان هو نفسه مغموماً .

مر أبو دلامة بنخاس يبيع الرقيق ، فرأى عنده منهن من كل شىء حسن ، فانصرف مهموماً ، فدخل على المهدى فأنشده :

إن كنت تبغى العيش حلواً صافياً فالشعرَ أعزبْه وكن نخاسا
تَنَل الطرائف من ظراف نُهَّد يحدثن كل عشية أعراسا
والربح فيما بين ذلك راهنٌ سمحاً ببيعك كنت أو مكاسا[١]
دارت على الشعراء حرفة نوبة فتجرعوا من بعد كأس كاسا
وتسربلوا قُمص الكساد فحاولوا بالنخس كسباً يذهب الإفلاسا

فجعل المهدى يضحك منه[٢] .

وليضحك الخليفة ما شاء فما قص عليه أبو دلامة هذه القصة ولا نظم ذاك الشعر إلا ليضحكه ويسرى عنه ، ويحيطه بجو مشبع بالأنس والسرور !

(يتبع) صبحى إبراهيم الصالح

(١) مكس فى البيع يمكس (من باب ضرب) نقص الثمن والمراد هنا المشاحة فى البيع والشراء ..
(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢٥١ .

قلب يتحدث ... على أي شيء؟!

للأستاذ محمد رجب البيومي

تباطأت عني بعد طول تسرع ... على أي شيء كل هذا التمنع
تصنعت هجراً فاستحال طبيعة ... فيالك طبعا قد أتى من تصنع
يخادعني شوق فأحسب أنني ... أراك تناجيني بمرأى ومسمع
أحاديث يحسوها الفؤاد كأنما ... تعاطى بها كأس الرحيق المشعشع
ويدهشني أني أرى كل ليلة ... خيالك عندي لا يبارح مضجعي
تذكرت ما قد كان بالأمس بيننا ... من الود فانهلت على الفور أدمعي
عشية تلقاني ببشر كأنما ... نزلت بروض ضاحك الزهر مونع
أراك على بعد فأقفز عاجلا ... إليك وقلبي خافق بين أضلعي
تجاورني جنباً لجنب كأنما ... أتيت إلى الدنيا لتبقى بها معي
وكنا إذا نمشي يقولون إخوة ... تغذوا أمصاف المهد من ندى مرضع
فكيف غدا روض الصداقة بلقعا ... تصيح به الغربان في كل موضع
أمر على ناديك كل عشية ... وبي غلة إن أقترب منك تنقع
أحدث نفسي أن أجيئك زائراً ... وأحذر ما عودتني من ترفع
فأرجع حران الجوانح صاديا ... وقد كنت من عيني على قيد أصبع
أنقل خطوى فوق شوك من الأسى ... كأني أمشي إذ أسير لمصرعي
ويرهقني التفكير فيك فأنثني ... إلى مكتبي كالحائر المتصدع
تمر فلا تلقي علي تحية !! ... وتلك التي تدمي فؤادي بمبضع
وتقرئ أعدائي السلام ودونهم ... مهامه أعيت ناظر المتطلع
فياليت شعري هل توهمت أنني ... أمامك تمثال من الصخر لا يعي
ويا ليت أني حين أخجلت موقفي ... تسترت حتى لا تراني ببرقع
أتعرض عمن كان ظلا مجاورا ... فأين تسر في رقعة الأرض يتبع
هنيئاً لأرباب الوشاية بيننا ... فقد حققوا في أمرنا كل مطمع
أطأطئ رأسي إن قدمت تزلفا ... وإن كان في جنبي مهجة أروع
وفاء بعهد قد تغيب في الثرى ... وشيعته عمداً ولما أشيع
إذا هاج بي وجدي أقول لعلها ... سحابة صيف آذنت بتقشع
ولكن أرى الجو الرحيب ملبدا ... بغيم متى يشخص لعيني تهمع
تمر الليالي وهو في القلب راسخ ... رسوخ الأسى في قلبي المتوجع
تهيج بي الذكرى فأطرق جازعا ... ومن يدكر عهد الصداقة يجزع
وأخفض للغبراء رأسي كأنما ... أقول لها: إني أمامك فابلعي
فيا كبدي صبراً جميلاً على النوى ... ويا مهجتي بالله لا تتقطعي
ويا من نأى عني بغير جريرة ... ولم يبق غير النار تلهب أضلعي
نصحتك بالحسنى وأنت مخير ... فدونك فافعل ما بدا لك واصنع
فإن تغترب عني إلى غير رجعة ... فبين يدي السم فلا أتجرع

(الكفر الجديد) محمد رجب البيومي

وداع ...

عن الإنجليزية للشاعر «كوفنترى باتمور»

ترجمة الآنسة «ن. ظ. ع»

رغم إحساسي وطوع الـ ... عقل لبيت الوداع
قد بدا الآن وما لي ... من عزاء في الصراع

رغم إعيائي سأمضي ... في خطاي الواهيه
لست أدري كيف أخطو ... من دموعي الهاميه

وجهتي للغرب هيا ... أنت نحو الشرق
لهف نفسي كيف أنا ... بعد هذا نلتقي

حين يخبو حزننا الغا ... لي ويتلوه المجوع
حين تجلو عن مآقيـ ... ـنا غمامات الدموع

سوف نلقى الليل مزدا ... نا بأسراب النجوم
والأماني عاودتنا ... بعد إعصار الهموم

رغم ما تبدين من صد ... ق وأبدي من إباء
وارتحالي في طريق ... لا يؤدي للقاء

نلتقي وجها لوجه ... في ذهول قاهر
لست أدري كيف سرنا ... في طريق دائر

بعد ذاك النأي والتجـ ... ـوال في وادي الشقاء
سوف نحيي ما حيينا ... ذكر هذا الالتقاء

ن. ظ. ع

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

واقعة حال مع المازني :

وقعت هذه الواقعة من نحو ثلاثة عشر عاماً ، وكنت طالباً في مطلع الشباب . كان الأستاذ كامل كيلاني قد أصدر كتاب « أساطير ألف يوم » فكتب الأستاذ المازني نقداً له في جريدة « البلاغ » وكنت قد قرأت الكتاب فسررت من قصصه وأعجبني أسلوب المؤلف في سياقتها . فلما قرأت نقد المازني له بدت لي أوجه في الرد عليه ، فكتبتها وبعثت بالرد إلى « البلاغ » فنشرته ونشرت معه تعقيب المازني عليه . وقد ساءني من التعقيب أنه لم يتضمن تفنيد شيء مما أوردته في الرد ، ولو أنه سفه كلامي وبين فيه وجه فساد أو قال مثلا إنه يدل على عدم الفهم أو نحو ذلك ، لكان الأمر أهون عليّ مما وقع ...

ذلك أنه ألمع إلى أن للأستاذ كامل كيلاني يداً في الرد إن لم يكن هو كاتبه ، وزاد على هذا أن ذلك مما يزهده في نقد الكتب وأنه سيمسك عن هذا النقد ...

كدت أجن من ذلك ، وامتلأت نفسي سخطاً على المازني ، فكتبت رداً على ذلك التعقيب ناقشته فيه مناقشة عنفت فيها ، ومما قلته إنه لا ينبغي أن يكتب ما يكتب ثم يعتصم مني في « قلعة التقديس » وأذكر أن كلمتي تضمنت هذا اللفظ بعينه ، وتوجهت إلى دار البلاغ ، وقصدت إلى مكتب المازني حيث ألقيته ، فدفعت إليه الرد وأنا أنظر إليه نظرة معناها : هأنذا فهل تريد أن تعرف أني صاحب الرد الأول ؟

وتناول المازني ردي وألقى عليه نظرة خاطفة ، ولم يزد على أن قال : « طيب حاضر » فسلمت بالإشارة منصرفاً كما فعلت مقبلا . ورضيت نفسي بأن أبلغته الرد ، وقلت يستوي بعد ذلك أن ينشره أولا ينشره ، المهم أني جابهته بما أريد .

وفي اليوم التالي رأيت كلمتي منشورة في البلاغ بحذافيرها وفيها ما فيها من العبارات القاسية الموجهة إلى فقيدنا اليوم .

اغتبطت بنشر الرد ، ولكن خاطراً نال من قيمة هذا الاغتباط في نفسي : أيكون الرجل قد استهان بي وأراد أن يدال على أنه لا يحفل بمثلي مهما كتب ؟ ولكن ألا يكون ذلك من قبيل الإفساح لحرية الرأي ؟ ترددت بين هذا وذاك ، ولكن الأمر المحقق الذي لا شك فيه أني أكبرت المازني منذ ذلك الحين وصنعت له في نفسي تمثالا سيبقى ما بقيت .

وبعد أن مضت سنوات على ذلك الحادث ، التقيت بالأستاذ كامل كيلاني ، وقال لي غير مرة : أنا لا أنسى أنك هاجمت الأسد في عرينه ! ولكني لم أغتر بكلمة الأستاذ كيلاني ، لأن الذي قرّ بنفسي أن الأسد أكبر نفسه من أن يصغر في مدافعتي ، فكن لي من المجوم عليه ...

المازني والإذاعة :

على أثر ما وجهه بعض الكتاب إلى إدارة الإذاعة من اللوم على تقصيرها في تسجيل مسرحيات الريحاني أعلنت الإذاعة في مجلتها أن همتها لم تقعد عن تسجيل أصوات العظماء وأعلام الأدب والفكر والفن في مصر ، وأنها قامت بذلك فعلا ، حتى أصبحت لديها هذه المسجلات .

ثم توفي المازني ، وظهر أن الإذاعة الهامة ليس لديها أي تسجيل لأحاديثه ... ولا أظن المشرفين على الإذاعة لم يسمعوا بأن المازني أديب كبير ، فلماذا لم يسجلوا شيئاً من أحاديثه ؟ لقد قالوا إنهم سجلوا أصوات أعلام الأدب وأريد أن أصدقهم ، فلم إذاً لم يسجلوا له فيمن سجلوا لهم ؟ أليس هو من أعلام الأدب ؟

ولم يظفر المازني من عناية الإذاعة بعد وفاته ، بغير نعي قصير في نشرة الأخبار ، في الوقت الذي نسمع فيه المحطات العربية من خارج مصر تتحدث عن المازني وتفيض في الحديث عنه .

فلم كل هذا يا إذاعة ؟ ألأنه غضب من الفوضى المتغلغلة في أعمالك ، ولم ترضه تصرفاتك غير اللائقة معه ، فانقطع عن مواصلة أحاديثه ؟

وأريد بعد ذلك أن أسأل : هل الإذاعة مرفق عام من مرافق

الدولة العامة تعرف للناس أقدارهم كيفما كانت علاقة موظفيها بهم أو هي ملك خاص لهـذه الفئة المشرفة عليها ، من رضيت عنه قربته وكانت له ، ومن لم يحظ برضاها أعرضت عنه وأهملت شأنه مهما كان مكانه ؟

عيد الباكستان :

احتفلت سفارة الباكستان بالذكرى الثانية لاستقلال الباكستان يوم الإثنين ١٥ أغسطس الحالى بدار جمعية الشبان المسلمين . وقد اشتمل الحفل على برنامج حافل من الخطب والقصائد والموسيقى والغناء ، وتجلى فيه روح المودة والإخاء بين الدولتين الإسلاميتين الباكستان ومصر ، تجلياً رائعاً بعث الأمل فى استعادة تماسك البنيان الإسلامى ، ولقد كان سرورنا نحن المصريين لا يقل عن سرور إخواننا الباكستانيين بعيدهم وعيدنا عيد استقلال الشقيقة الناشئة الكبيرة : الباكستان .

وقد تحدث الخطباء وأنشد الشعراء فعبروا جميعاً عن ذلك الشعور وأشادوا بما يجمع بيننا من التراث الإسلامى والثقافة الإسلامية ، ومن هؤلاء الخطباء والشعراء الدكتور حسين الهمدانى الملحق الصحفى بالسفارة وأصحاب المعالى إبراهيم دسوقى أباظه باشا وحافظ رمضان باشا وصالح حرب باشا والأستاذ إبراهيم اللبان والدكتور إبراهيم ناجى والأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم الهامى .

وقد أفاض حافظ رمضان باشا فى الكلام على الاسلام من حيث هو عقيدة ونظام ، وبدأ حديثه بالإعراب عن شعوره حينما دعى إلى هذا الحفل ، فقال إنه لبى هذه الدعوة ، وقد جرى أخيراً على رفض الدعوات إلى الحفلات الكثيرة التى تقام لمناسبات وأغراض مختلفة ، لأن رجال الباكستان أعلنوا أنهم يضعون دستور بلادهم على أساس التعاليم الإسلامية ، وقال إن الإسلام هو دين العدل والحرية والمساواة والإخاء ، وإنه لا يوافق الديمقراطيات الحديثة فحسب بل إن هذه الديموقراطيات لم تستطع أن تخالف مبدأ واحداً من مبادىء الإسلام .

ولما جاء دور الأستاذ إبراهيم اللبان شرع فى بيان تاريخى لتطور الدولة الإسلامية فى الهند ، واسترسل إلى إجادة المثقفين الباكستانيين للغة الإنجليزية ، ذاهباً إلى أن هذا يتيح لهم التقريب بين الإسلام والعقلية الأوربية . والأستاذ اللبان عالم مستقيم

كشكول الأسبوع

◻ وافقت وزارة المعارف على إنشاء معهد للثقافة الإسلامية فى إسبانيا يحمل اسم الفاروق من أغراضه تنظيم التعاون الثقافى بين مصر وإسبانيا ، وتمكين دارسى الأدب العربى والثقافة الإسلامية من الاستعانة بما خلفه العرب فى إسبانيا من آثار وخاصة المخطوطات العربية التى تزخر بها المكتبات الإسبانية .

◻ كان الأستاذ على محمود طه قد أصيب بمرض حاد منذ شهر تقريباً ، ومنع الأطباء زيارته ، مما زاد القلق عليه . ويسرنا أن نذكر أن الأستاذ قد تماثل من علته وتقدم نحو الشفاء .

أسبغ الله على شاعرنا الكبير ثوب الصحة والعافية .

◻ قررت الحكومة المصرية تأليف وفد رسمى يمثل مصر فى مهرجان « كان » السينمائى الدولى — من محمد الشريف بك ومحمد رشدى بك ويوسف وهبى بك وسليمان نجيب بك وأحمد سالم .

◻ وافق معالى وزير المعارف على ندب الدكتور محمد عوض محمد بك المدير العام للثقافة بوزارة المعارف ، لحضور اجتماع الدورة الرابعة لهيئة اليونسكو التى ستعقد بباريس من ١٩ سبتمبر إلى ٥ أكتوبر المقبل .

◻ أوشكت اللجان المشكلة بمجمع فؤاد الأول للغة العربية لمراجعة المعجم اللغوى الوسيط ، على الانتهاء من مراجعة أصوله ، وسيستأذن مجلس المجمع عند اجتماعه فى شهر أكتوبر المقبل فى طبعه . والمعجم يقع فى نحو ألف صفحة من القطع المتوسط ، وقد حوى أهم ما يحتاج إليه المثقف من ألفاظ العلوم والفنون والآداب إلى جانب المواد اللغوية العامة .

◻ أوصى أحد الكبار بقبول مغن فى الإذاعة ، فلما رأى المشرفين عليها مترددين فى قبوله قال لهم : خذوه ، وعلى كل حال إذا رأيتم أن « تمعين » سروا منه فافصلوه !

◻ صدر أخيراً كتاب « الوساطة الروحية » للأستاذ عبد اللطيف محمد الدمياطى ، وهو يبحث فى الوساطة الروحية من النواحى المختلفة : فى التاريخ ، ومن ناحية العلم والعمل ، والعلاج الروحى ، وما إلى ذلك . وقد سلك فيه المؤلف مسلكا واضحاً يقف منه القارىء على ما يهمه من هذه الأبحاث .

◻ قرر استديو مصر المضى فى إنتاج فلم محمد على بعد رفض اللجنة المالية بمجلس النواب ما اقترحته وزارة الشؤون الاجتماعية من [illegible] ثلاثين ألف جنيه لمساعدة الاستديو فى إنتاج هذا الفلم وقد رفع « السناريو » إلى الجهات العليا ، فإذا ما وافقت عليه أخذ فى الإخراج والتصوير .

◻ صدر السجل الثقافى لسنة ١٩٤٨ الذى أعدته إدارة التسجيل الثقافى بوزارة المعارف . وقد طبع منه ألفا نسخة ، ووافق معالى وزير المعارف على أن يهدى منها ١٥٠٠ نسخة إلى الشخصيات والهيئات التى لها صلة بالثقافة العامة ، وأن يباع الباقى بسعر النسخة ٤٠٠ مليم .

الفكر ، ولكنه لم يراع مقتضى المقام فى حفل يتعاقب فيه خطباء كثيرون ، فأطال مع خلو كلامه من العناصر الخطابية المشوقة ، فنال أكبر حظ من تصفيق الحاضرين ... حتى اضطره هـذا التصفيق إلى أن يقطع كلامه ويجلس ساخطاً على المصفقين المحتجين .

وكم كان جميلا وظريفاً أن تمتلى المطربة ملك خشبة المسرح ، وقد ارتدت « السارى » ثوب المرأة الباكستانية . فغنت « نشيد الباكستان » الذى نظمه الأستاذ عبد المنعم إبراهيم ، وهو نشيد جيد جـداً أن تتخذه الباكستان نشيداً دائماً ، على أن يلحن تلحين الأناشيد ، فقد « غنت » فيه ملك على طريقتها المعروفة بصوتها الجميل ، فأطربت ولكنها لم تؤده باعتباره نشيداً ، فقد كانت تلين وتطرو عند ما تنشد أو تغنى مثلا :

عيد باكستان أضحى عيد مجد المسلمين

وكـسرت « المسلمين » وأنثته برقة صوتها ، وهو جمع مذكر سالم ...

الباكستان تتجه نحو العروبة :

التفت هذا القلم إلى دولة الباكستان الفتية منذ أشرقت عليها شمس الاستقلال ، واتجهت مشاعر أهلها وأنظار قادتها إلى توطيد العلاقات بالبلاد العربية وإحياء اللغة العربية وآدابها وثقافتها بين مسلمى الهند الذين أصبح لهم كيان مستقل بالباكستان . وقلت مرة : إننى أرصد هذه الدولة الفتية كما يرصد الفلكى حركات نجم جديد . وهأنذا اليوم أنظر إلى هذا النجم فيسرنى أن أراه صاعداً فى السماء ...

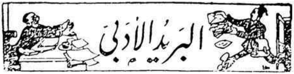
إن حضارة الأمة الباكستانية ولغتها وعاداتها وتقاليدها ، مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية ، ولم يستطع الزمان أن أن يمحو ميلها الشديد إلى العرب بسبب الروابط الدينية والتاريخية الوثيقة التى تربطها بهم ، ولم يمنع اكتمال عروبتها إلا الظروف والأحداث التاريخية فى القرون الأخيرة إذ حكمها الترك والمغول ثم الاستعمار الإنجليزى فى آخر المطاف . ورغم هـذه الظروف والأحداث لا تزال الصبغة الإسلامية باقية ، ولا يزال الأثر العربى بارزاً فى مظاهر الحياة المختلفة ، فاللغات المحلية كالسندية وغيرها تحتوى على ألفاظ لا حصر لهـا من اللغة العربية كألفاظ الجبل والنهر والخطر والقلم والعلم والمدرسة والكاتب والحكيم والدير وغيرها ، واللغة السندية تكتب حتى اليوم كتابة عربية . ويقال إن اللغة الأردية لو أسـقطت منها الكلمات العربية استحال اســتعمالها .

وقد تخلصت الباكستان من الاستعمار البريطانى ، وأصبحت بلاداً حرة ، فجعلت تقوى صلاتها بالعرب ، وكان من ذلك ما أبدته من الوزارة فى قضية فلسطين أمام هيئة الأمم المتحدة ، ثم هذه الأريحيـة العظيمة التى جادت بنحو خمسين ألفاً من الجنيهات للاجئين من عرب فلسـطين ، وهو مجموع ما تبرعت به دولة الباكستان وشعبها .

ولاشك أن الإسلام والعروبة صنوان ، والباكستان الإسلامية تتجه الآن إلى العروبة اتجاهاً ظاهراً ، لا بتعزيز علاقاتها بالدول العربية فحسب ، بل كذلك بما شرعت فيه من العمل على نشر اللغة العربية بين أهلها والبدء باتخاذها لغة ثقافية لها ، إلى ما تدعو إليه الضرورة الدينية من فهم لغة القرآن الكريم ، وسيفضى ذلك إلى اتخاذ العربية لساناً قومياً لا ثقافياً بأكبر أمة إسلامية ، وإن توحيد لغـة التفاهم بين المسلمين كفيل بالتقارب وتبادل الآراء بينهم . وحكومـة الباكستان جادة فى تعليم اللغة العربية بمدارسهـا ، وهى تتجه فى ذلك إلى مصر كما تتجه إلى الأزهر خاصة للتوسع فى التعليم الإسلامى . وقد افتتحت الإذاعة العربية من الباكستان يوم الاحتفال بعيد استقلالها ، وبرامج هذه الإذاعة حافلة بالإنتاج المصرى فى الفنون والثقافة ، وقد اختير لإدارة هذه الإذاعة شبان مصريون مثقفون .

وبعد فإنى أريد — مع اغتباطى بكل تلك المظاهر — أن أهمس فى آذان زعماء الباكستان وقادتها ، أن يبدؤا بأنفسهم فيتعبوها قليلاً بتعلم اللغة العربية ، لتكون لساناً لهم ، بدل الإنجليزية فى البلاد العربية على الأقل .

عباس خضر



حياة الريف في الأدب :

إن الخضرة المترامية التي تكسو الوادي الخصب لتبدو رائعة حينما تأتلق بين أعطافها الإشعاعات الحانية المرسلة من شمسنا الوادعة ، والأبصار تختلب حينما يجذب أحداقها مرائي الصور الخلابة في مرامي الأحاسيس الشاعرة ؛ فأين تصوير حياة الريف بعد الانفعال بمظاهر روائعه الأخاذة ؟.

لقد صعد بنا الخيال إلى أقاصي الصعيد ، ومتعنا رؤية المرئيات التي شاهدت بها عواطفنا أسمى ما يصل بين الخالق والمخلوق ، وعلى الرغم من معاناتنا التأزم النفسي لم يتقاص شعورنا بل كانت الباصرة تطل من نافذة الإيمان على مشاهد الوجود ، فتأنس إلى الوحدة ، وتستأنس الوحشة ، ويقال : إن نقد الشيء أيسر من وجوده ؛ ونحن لا نتطاول في نقدنا إلى درجة التعجيز ، أو تدفعنا غرة الغرور إلى الاستصلاف ، وإنما نبغي التنويه بما يجب أن تتجه إليه الشاعر ؛ فالأدب مقفر من معالم « البيئة » ، لانصراف الأذهان عن الاتصال بالحياة الأصيلة الفطرية إلى الصنعة الوافدة الراكدة !.

لقد بلغت الجهود الاكتفاء بأوصاف أجزاء الأجسام « العارية » عن الإنسانية ، فيكد الشاعر خياله ، وديباجته ، ولغته في تصيد الألفاظ التي تكشف سيئاتها عن سوآتها ! ، وهو يكون رائعاً إذ يصف الثغر ، والنهد ، والساق ، والشعر وما « بلى ..! » ، وقد تناسى تلك المتهادية في خفر الأنوثة حاملة جرتها على رأسها تناغي مع مناغاة ماء النيل أعذب غنوة من أطهر شفة ! . يذهب بالتغني « بالعوامة » إلى تجاهل روعة « المركب الشراعي » الذي لا زال وفياً بعهده ، باقياً على وده !.

إن أدبنا فقير في تصوير « البيئة » ، وطفت موجة التقليد للصحف البعيدة عن حياتنا وعاداتنا ، وطبيعة بلادنا ، حتى كاد يغمرنا طوفان ننسى معه قوميتنا !

لا نعني بالأدب المنثور والمنظوم من الكلام ، وإنما نقصد كل لون فني يسمو بالمعاني الإنسانية ، كالتصوير والنحت والخيالة ذات التقصير المعيب ! . ولا ننسى أن أدبية ملهمة موفقة كالسيدة « بنت الشاطئ » قد كتبت عن الريف ، ولا زالت تنتهز النهزات « للتمريف » به لمن جحدوه وجفوه وأنكروه لكن صوتاً واحداً مهما تبلغ جهارته لن يكون بعيد الأثر إذا لم يكن من دخائل الطباع ما يحثها على تعرف مواضع الجمال في هذا الريف وتمجيده ، والتباهي في مقام الفاخرة ، والإشارة بما يرسمه الفن على صفحة النفس من الانفعالات التي ترتفع بعمالم الوطن إلى مواطن الخلود !

(بور سعيد) **أحمد عبد اللطيف بدر**

سهو لحن القول :

١ — دأب الكتاب على جمع باسل على بواسل ، وتردد هذا الجمع في هذه الأيام وصفاً لجنودنا . ويعلم السادة الأفاضل — الكتاب — أن الجنود رجال أبطال وقوم عقلاء فلما يضمونهم — من الوجهة الصرفية — بين ربات الجمال وفاقدى العقول . وهذا الجمع غريب شاذ ، فلا المعاجم تذكره ولا القياس يبرره ولا السماع يؤيده ، فلما لا نقتله ونحيي لفظين رشيقين صحيحين يستعذبهما الذوق ويستلهمها القلم وهما بسل وبسلاء .

وقد ورد هذا الجمع في تعقيبات الأستاذ أنور المعداوي في العدد (٤٨١) من الرسالة .

٢ — ومما يقلبه الكتاب — عامتهم — قلباً ويمسخونه مسخاً ويسلخونه سلخاً استعمالهم تواً بمعنى « الساعة وحالاً » فيقولون ذهب تواً وذهب لتوه .

وهذا المعنى تلفظه المعاجم وتنبذه اللغة وما قالته هو التو بمعنى الفرد ، فذهب تواً أي فرداً أو لم يلو شيء والصواب توه .

٣ — ويقال التحق بالجيش وبالمدرسة ، وهذا غير فصيح وليس بالصريح ، بل هو عامي مولد كما جاء في تاج العروس والصواب لحق والحق .

هذا ما أردت إثباته ، ثبتنا الله على الفصيح والسلام ...

(المنصورة) **عبد الجليل السيد حسن**

نقد وتعقيب :

كان الأستاذ أبو حيان جائراً أشد الجور في نقده لكتاب .. « الهجاء والهجاءين » ولو كان محقاً فيما قاله لقبلناه منه وحمدناه له برغم ما في المقال من ألفاظ التهكم التي لا تليق بكبار الكتاب ولكنه مع هذا كان مجانباً للصواب في بعض ما أخذه على المؤلف الكريم ...

فالأستاذ الناقد يقول في البيت الأول : « كيف يحدى أبو بكر بالرماح .. فالحادي يحدو الإبل بغنائه فتنساق خلفه وتطرد وراء حدائه .. فكيف يمكن أن تكون الصورة حين يضع الرماح في موضع الحداء .. وفات الناقد أن الحدو أو الحداء ليس الغناء فقط ، وإنما هو سوق الإبل والغناء لها .. وللرماح — حالة إرسالها .. صوت يشبه الترنم والغناء قال الشماخ :

إذا نبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وعلى هذا فالصورة الشعرية واضحة لا تعقيد فيها ولا التباس ..
أما قوله بأن يحدى بالقنا المعجمة بمعنى يطعن فدخلها التحريف. فلا حاجة إليه بعد أن اتضح المعنى على التخريج الذي ذكره المؤلف ورضيناه .. فضلا .. عن أنه لم يُسمع حذا بالقنا بمعنى طعن كذ وحذق وحذف .. وإنني أود أن يكون الناقد رفيقاً فيما يتناوله بالنقد ...

(أسيوط) كيلاني حسن سند

إلى الأديب الأستاذ الكبير راجي الراعي :

أعجبتني خطرات فكرية رقيقة ، وأضواء ذهنية مشرقة دبجتها براعتكم بالعدد ٨٤٠ من الرسالة . ولقصوري عن الإحاطة بالمراد من العبارتين الواردتين في مناجاة الشمس وهما « يا ابنة الله » « يا عين الله » أرجو التفضل بجلاء ما غمض منهما خدمة للحقيقة والأدب ولكم منا عاطر الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

(المنيا) دسوقي إبراهيم حنفي

حول تصحيح :

طالعت تعقيب الأستاذ « غازي » على شرح الأستاذ « أبي حيان » لبيتي الحطيئة بن أوس — ومع تقديري لرأي الأستاذين رأيت أن أدلي بدلوي في الدلاء ، فأقول : كلمة « الرجال » في البيت الثاني قد تكون محرفة من « الرحال » جمع رحل والمقصود بها الأعباء وكذلك كلمة « هبنه » محرفة من « هجنه » بمعنى أفزعنه وآرنه ، فلا يبقى محل لتخطئة الأستاذ « غازي » للشاعر : فيكون البيت هكذا :

ولكن بدهدي بالرحال فهجنه إلى قدر ما إن يقيم ولا يسرى

وبذلك يستقيم معنى البيت والله أعلم .

(كفر الدوار) أبو معاذة



الشـــقاء المقدّس ...! (*)

[إلى اللائى يعشن فى مأتم الروح ... عزاء من الحياة]

للأستاذ أنور المعداوى

كانت أجمل امرأة فى عصرها ، وكانت أشقى امرأة ... أما جمالها فحسبه أنه كان وحيا لأمير النثر الفرنسى شاتوبريان ، وأمير الشعر لامرتين ، وسيد كتاب القصة الذاتية بنجامان كونستان . وأما شقاؤها فلو قدر لفنان أن يصنع تمثالا للجمال اليائس ، أو يرسم لوحة للأمل اليائس ، لما وجد لفنه خيراً من قصة مدام ريكامييه !

عندما وفدت إلى باريس عام ١٧٩٣ ، كانت الثورة الفرنسية المجنونة تلتهم أبناءها فى غير رفق ولا هوادة . وكانت نفس الصغيرة جولييت برنار تفيض أسى ولوعة لمنظر الذاهبين إلى المقصلة : نساء ورجال ، فى ميعة الصبا وفجر العمر ... يذهبون إلى غير رجعة . وشعب يصفق للدماء المراقة تجرى هنا وهناك ، وهو أبداً ظمآن لا يرتوى ! ... أية نفوس تلك التى خلت من معانى الرحمة وأية قلوب تلك التى تحجرت فلا ينبض فيها عرق بعاطفة ، وأية عقول تلك التى أذهلتها القسوة فلا تصغى لصوت برئ ولا تحفل بشكاة مظلوم ؟! ... كانت جولييت الفاتنة تحدث نفسها بهذا كله وهى تصبح وتمسى على منظر واحد : مقصلة ، ودماء ، وشعب يلهو بضحاياه كما يلهو عالم التشريح بحيوان بائس ، يئن تحت أطراف مبضعه ... ولكم ودت أن تفر من هذا العذاب إلى بلد آخر ، تنعم فيه بالهدوء والصفاء والأمن ، وتلوذ بنفسها فى أحضان الطبيعة الحانية : تشبع عينيها من النهار المشمس والليل المقمر ، وتملأ رئتيها من الهواء النقى ، يحمل إليها رائحة الزهر لا رائحة الدم ، وغناء الطير لا أنين الضحايا ، وتلتقى نفوساً لم يدنسها حقد ولا ضغينة ، بل يجمع بينها صفاء ووفاء ، ووداعة وقناعة ، ولكن أين هى من هذا كله ؟ ... لقد قدر لها منذ أن فتحت عينيها فى الوجود ، أن تعيش فى العذاب : إحساساً ورؤية !

كانت فى ربيعها الخامس عشر حين كان مسيو ريكامييه يتردد على بيت أبويها ، وكان أبواها يدركان أن ريكامييه الثرى وصاحب المصرف الشهير ، لا يتردد على بيتهما إلا لأنه يحب ابنتهما كل الحب ، ويعجب بها كل الإعجاب ... وما أكثر الذين كانوا يتهافتون على جمالها النادر فيرتدون على أعقابهم إلا ريكامييه ، فقد وصل . وصل بماله إلى قلب الأم والأب ، ولكنه لم يصل إلى قلب جولييت ... وحين خطبها إلى أبويها ألحا على ابنتهما أن تقبله زوجاً فقبلت على مضض ! كان فى الأربعين من عمره ... خمسة وعشرون عاماً تفصل بين قلبين ، ومزاجين ، وشعورين . وهنا يلتقى الخريف بالربيع ، ربيع حياتها بخريف حياته ! وعاشت فى قصر ريكامييه كما تعيش الملكات ، ولكنها كانت تحس الفقر فى كل مكان تطؤه قدماها ... لقد مضت بها الأيام قلقة متشابهة ، لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح . أى شباب هذا الذى تقذف به المقادير فى خضم من أعاصير الحيرة ، فلا يدرى على أى شاطئ ترسو سفينة أحلامه وأوهامه ؟! ... لقد مرت شهور ومدام ريكامييه لا تزال عذراء كما كانت . حياة كلها غموض وأسرار ، ولقد كان الحياء وحده هو الذى يمنعها أن تسأله عن سره ... سره الذى طال ! أى إنسان هذا الذى يحوطها بعطفه وحبه وحنانه ، ثم لا يقربها كما يقرب الأزواج ... ؟! كانت تتعذب فى صمت ، وتبكى للجمال يذوى بين يدى الحرمان ، ولا تجد الجرأة على أن تفاتحه يوماً بما يعتلج فى نفسها : أليس رجلاً ؟ أليس زوجاً ؟ ألا يهزه هذا الجمال ؟ ألا يصير راهباً إلا حين تربط بينهما المقادير ؟! وتتلظى الكلمات على شفتيها كصفوف جيش أعدت للهجوم ، وتلتهب الأفكار فيما بينها التهاب القنابل ... ولكنها حين تلتقى بزوجها وجهاً لوجه ، تموت الكلمات ، وتخور العزيمة ، وتخمد الجرأة ، ولا يبقى إلا الحياء يشل منها اللسان ، ويجعل منها إنسانة ضعيفة مسلوبة

(*) عن كتاب « مدام ريكامييه » للسياسى الفرنسى الكبير إدوار هريو ، ومراجع أخرى .

الإرادة ! كانت تتلهف إلى شيء واحد ... هو أن تعلم سره . ولكن سره الرهيب كان أمنية بعيدة المنال ، وعاشت مدام ربكاميه وماتت ، دون أن تعلم شيئاً . لقد عاشت عذراء ، وماتت عذراء !!

ثلاثة هم الذين كانوا يعلمون سر ربكاميه : الله ... وهو ... وأمها ! أكان يمكن أن يبوح مسيو ربكاميه بسره إلى زوجته ألا ما أقسى سخرية القدر ! ... أيقول لها إنه أبوها ، وإنها ثمرة حبه من أمها ؟! أمن الممكن هذا ؟ زوج وأب ؟ وتريد ابنته أن يباشرها كزوج ؟ ... إنه يحنو عليها كما لم يحن على إنسان ، ويبؤها بحبه وعطفه ورعايته ، ليذيبها على سر الزمن هذا الذي تفكر فيه ، ويرمض جوانحها بالعذاب ! واستطاع مسيو ربكاميه على الأيام أن يحل الروح من نفسها محل الجسد ، وأن يزيح عن كاهلها كثيراً مما تعانيه .

أما لماذا تزوجها وهو يعلم أنها ابنته ، فذلك سر آخر ... كان ربكاميه من أنصار الملكية ، وكان ينتظر يومه الذي لا مفر منه على أيدي الثوار . وكان يدرك أن المقصلة في انتظاره ، وإذا كانت قد أخطأته اليوم فلن تخطئه غداً ، فلمن يترك ملايينه بعد مصرعه ؟ ليس هناك من يستحقها غير ابنته .. جولييت برنار ! ومن هنا تزوجها ليكفل لها حياة هنيئة ، يسعد فيها هذا الجمال الذي ينتسب إليه . كان يخشى أن يثير الظنون إذا ما ترك لها ثروته دون علاقة تربط بينها وبينه ... ولكن المقصلة تخطئه ، والثوار يغفلون عنه ، ويقدر لمسيو ربكاميه أن يعيش ليتعذب وأي عذاب أكثر من هول الشعور الذي كان يرزح تحت أثقاله .. الشعور بأن زوجته هي ابنته ؟! لكم ود أن يطلقها ولكنه لم يستطع ، إنها ابنته ومن حقها وحدها أن تنعم بثروة أبيها . وماذا يقول الناس ، وماذا يقول زوجها الآخر إذا ما قدر لها أن تتزوج من بعده ، حين يكتشف أنها خرجت من بيته وهي عذراء ؟ ! أليس في ذلك ما يجرح كرامته كرجل يعتز برجولته ؟ أليس من المحتمل أن يكشف سره فيتهامس به الناس ، فلا يلبث أن يكون حديثاً تجهر به الشفاه ؟ ! ... ويلح عليه العذاب حين يخلو إلى نفسه ، ويشعر أن زوجته ، تلك الزنبقة الغضة ، قد أرغمت على أن تعيش بسببه بين سفى الرمال ولفح السمائم ! شيء واحد كان يعجب له مسيو ربكاميه ولا ينتهي له عجب ، هو ما تتحلى به ابنته من طهر وعفاف ، على الرغم من أن حياتها الزوجية قد خلت من الرجل ! ... لقد كانت مدام ربكاميه محط أنظار الشباب وحديث أمانيهم ، يتهافتون عليها في كل مكان من أجل نظرة أو ابتسامة . وما أكثر ما كانت تنظر إليهم وتبتسم لهم ، وتضن عليهم بما دون ذلك ... إنها امرأة ، وجميلة ، فلم لا تفيض على ركب المعجبين من هذا النبع الفياض ، وهم الذين يشعرونها في كل لحظة بأنها إنسانة ساحرة ، تنطق بذلك وجوههم فلا حاجة بها إلى مرآة ؟! من هنا كان ربكاميه يعجب بها ويعجب لها ، ويزداد حبه لزوجته وتقديره لابنته ... وكانت مدام ربكاميه تنسى مرارة الحرمان حين ترمقها نظرات المعجبين ، وحين تتناوى شفتيها شفاههم الظامئة ، فتمتنع وفاء للزوج ، واستجابة للضمير ، وإرضاء للدلال ! ... جمال تتقاذفه أمواج الحرمان فحرم من نعيم الحياة وحرم منه الناس ، وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ، عاشت في تربة من عفاف وصون فمزت على القاطفين !

كان قصرها في « كليشي » أشبه بندوة عامرة يؤمها رجال السيف والقلم بين حين وحين ، وصالوناً من تلك الصالونات الفخمة التي كانت تزخر بها باريس ويقصد إليها المترفون من الرجال والنساء لتغذية العين والفكر والخيال ... وفي يوم من أيام قصرها الحافلة بالترف والإيناس والمتعة ، يقع لمدام ربكاميه حادث يهز كيانها هزاً عنيفاً ، وتتذوق في ظلاله طعم الرى ، وتنسى حرقة الظمأ ، وتشعر كما لم تشعر من قبل .. بأنها امرأة ! كان ذلك في حديقة القصر حين ركض وراءها ابن أخت ربكاميه ، وكان شاباً جميلاً من ذلك النوع الذي يخلب ألباب العذارى ... وكانت هي تنفر منه في دلال ، وتضحك من عجزه عن اللحاق بها ، ولكنه يلحق بها ويحتويها بين ذراعيه ... وكادت تصعق من هول المفاجأة ، فراحت تقاوم في عنف ، ولكنها أحست بوجهها يلتهب تحت أنفاسه المحترقة ، وبشفتيها تذوبان في شفتيه ، وبكيانها يتلاشى في كيانه . وفي غمرة النشوة رأت نفسها تغيب معه في حلم جميل ، وتطوق عنقه بذراعيها ، وتدفن وجهها في صدره ، وتنظر في عينيه نظرة طويلة حالمة ... نظرة امرأة استيقظ في أعماقها الرجل ! وحين أفلتت من بين يديه تطلعت إليه كغزال مذعور ، وانطلقت تجري إلى القصر ... كانت تريد أن تخلو إلى نفسها لتستعيد الحلم الجميل مرة أخرى !

حرك هذا الحادث فى نفس مدام ريكامييه كل عاطفة خامدة ، وأثار كل شعور كامن ... وراح الفكر الحيران يسبح فى خضم الوجود ، باحثاً عن أمنيات ضلت طريقها من طول ما لقيت من ظلام وضباب . والذهن الكليل يحلق فى أجواء الخيال ، يبنى من قصور الأوهام ما شاءت فنونه وشجونه . والقلب الثائر يرسل أناته فى نبضاته ، فلا يسمع لها صدى من عطف حبيب أو رفيق ، والروح الشاردة تعبر عالم الأسى والأنين مرتاعة ملتاعة ، تنشد الرى فلا تجد إلا الظمأ ، وترقب النشوة فلا تحس إلا الألم ، وترجو الفرحة فلا تلق إلا الشجن ، ولا تعود من عالمها هذا إلا بأشتات المنى تحتضر !

وتمضى الحياة فى طريقها تطوى الأيام حتى تقف بمدام ريكامييه عند يوم لا ينسى ... لقد رآها نابليون فى ذلك اليوم فى حفلة من تلك الحفلات الصاخبة التى كان يعج بها قصر أخيه لوسيان !

كان لوسيان يهيم بها ، ويتقرب إليها ، ويلقى إلى الصيد الجميل بكل ما شاء من شباك ، ولكنه لم يكن يظفر إلا بابتسامة عذبة تحمل إليه كثيراً من المعانى ... ولوسيان من هو ؟ جمال تحلم به كل فاتنة ، ووزير الداخلية ، وأخو القنصل الأول والحاكم بأمره ! وعلى كثرة الوجوه الفاتنة التى كانت تزخر بها حجرات القصر وردهاته ، فإن نظرات بونابرت النفاذة لم تستقر إلا على وجه مدام ريكامييه ، وحين مرت به لموباً كما مرت بغيره ، راح يسأل الجنرال برنادوت عن هذا الجمال الذى لم يحفل بنظرات القنصل الأول :

— برنادوت ... أتعرف هذه الفاتنة ؟
— أية فاتنة يا مولاى ؟ !
— تلك التى تتحدث إلى أخى لوسيان ...
— أتعنى مدام ريكامييه يا صاحب الجلالة ؟ !

وهتف بونابرت فى صوت حالم : مدام ريكامييه .. يالها من امرأة ... !

وغادر المكان وفى رأسه ثورة تحتدم ... لقد قرر أن ينالها مهما يكن الثمن ، وأن يخوضها معركة حامية ... ضد امرأة !

ويالها من معركة كانت أسلحتها من أهداب وجفون ... معركة لم يكن يقدر لها أن تطول ، وأن تنتهى بهزيمته ! لقد جرب القائد الشجاع كل سلاح ، واستنفد كل خطة ، وحارب فى كل ميدان ، وحين باء بالخذلان راح يصب نقمته على الجمال النادر ... وابتدأت حياة العذاب ، تلفح بنارها الوجه المشرق ، والثغر الباسم ، والعينين الساحرتين ... وعلى مر السنين ، وتحت وطأة الشجن ، ذبل الشباب النضر ، وسكت الصوت العذب إلا من أنات !

لقد بدأ النضال بين بونابرت ومدام ريكامييه فى ذلك اليوم الذى قبض فيه على أبيها ، أعنى زوج أمها ، ليحاكم فى اليوم التالى بتهمة الخيانة العظمى ... كان الرجل مديراً عاماً للبريد ، وكان من الذين يدينون بالولاء للنظام الملكى ، فاشترك فى إيصال بعض المكاتبات للحزب الملكى الذى كان يعمل فى الخفاء ضد الحكم القنصلى ... لقد خارت قواها فى ذلك اليوم من هول الصدمة ، ومضت تنشد العون عند كل صديق ، لتبعد شبح المقصلة عن الرجل الذى كانت تظنه أباها . ويتوسط لها الجنرال برنادوت ، ويصحبها إلى قصر التويلرى لمقابلة القنصل الأول ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يرى فيها بونابرت مدام ريكامييه ... وخضع الجبار لسطوة الجمال القاهر ، فأمر بحفظ الدعوى والإفراج عن الرجل ! وخيل إلى الصقر الفرنسى أنه بهذا الصنيع الذى أسداه إلى الحمامة الوديعة ، خيل إليه أنه يستطيع أن يدنيها منه حين يشاء ، وأن يخضعها لرغباته !

وتدور عجلة الزمن ، ويصبح القنصل الأول امبراطوراً تدين له فرنسا وما حولها بالطاعة والولاء . وعلى الرغم من المهام الكثيرة الملقاة على عاتقه ، وما يشغل فكره من أمجاد وأطماع ، فإن صورة مدام ريكامييه ما فتئت تداعب أحلامه وأمانيه ... عرض عليها أن تكون وصيفة لزوجته الإمبراطورة فاعتذرت عن قبول هذا الشرف فى لطف ولباقة ! كانت خطة محكمة رسمها القائد العظيم لينهى بها المعركة التى طالت ، وكان يهدف من ورائها إلى أن يدنى منه مدام ريكامييه ... وحين ألح عليها أن تقبل ما عرضه عليها ، اعتذرت مرة أخرى فى عزم وإباء ... كل شىء قد خضع لنابليون إلا مدام ريكامييه ! ومن هنا أعلنها حرباً سافرة لا تبقى ولا تذر . وتحت ضرباته الرهيبة المتوالية ، هوى الجمال النادر من قمة الثراء إلى حضيض الفاقة ... وفقدت مدام ريكامييه كل صديق ، وانطلقت الأراجيف تنال من سمعتها كل منال ، ولقى كل من ينتسب إليها أعنف ألوان الاضطهاد والتشريد ... هذه صديقتها الكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام دى ستايل يلقى بها بونابرت بعيداً عن أرض الوطن ، ولا يلبث أن يلحق بها صديقها الآخر بنجامان كونستان ! أما مسيو ريكامييه

فقد أمر بونابرت بأن يقطع عنه بنك فرنسا كل معونة مالية ، وأسرع الناس يسحبون ودائعهم من مصرفه ، وحين أوشك على الإفلاس ، لم تجد مدام ريكامييه بداً من أن تتوسل إلى الجنرال مينو حاكم باريس ليشفع لها لدى الإمبراطور ... ورفض بونابرت ، وبصيح بشماته صارخاً فى وجه صديقه :

قل لمدام ريكامييه إننى لست عشيقاً لها حتى أنتشلها من مهاويها ... وهكذا تردّى مسيو ريكامييه إلى هوة الفقر والشقاء ، وذاقت معه مدام ريكامييه طعم البؤس والحرمان كما لم يذقه إنسان

وحين فقدت أمها وهى آخر أحبابها وأعز أمانيها ؛ قررت أن تهجر فرنسا أرض العذاب ، لتلحق بصديقتها الوفية مدام دى ستايل ... وهناك على شاطئ بحيرة ليمان فى سويسرا ، التقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع ! وفى رحاب صديقتها وعلى مر الأيام استطاعت مدام ريكامييه أن تنسى بعض آلامها وأن تجد لقلبها بعض العزاء ... لقد التقى بها أحد الأمراء البروسيين ، وكان له من جماله وشبابه ونبل محتده ما ألهب عواطفها الخامدة . وحين صارحها بحبه ، تفتح له قلبها المغلق كما تتفتح الزهرة تحت أنداء الفجر ... وراحت تكتب إلى زوجها مسيو ريكامييه ، طالبة إليه أن يطلقها لتتزوج من الرجل الذى أحبها وأحبته . وعند ما تلقت رد زوجها من باريس لم تملك إلا أن تبلل سطوره بالدمع ! ومضت تقرأ وهى لا تكاد تتماسك من الأسى واللوعة : « عزيزتى جوليت ... لم أكن أنتظر أن أفقد كل شىء فى دنياى حتى زوجتى الحبيبة ... ذلك الأمل الأخير الذى كان يسطع فى أفق حياتى فينير لى الطريق ... ما أقساك يا جوليت ؟ ... إنك لا ترحمين وحدتى وغربة روحى . أتريدين أن تتخلى عنى لأننى أصبحت فقيراً ؟ ... أنا الذى ضحيت بمالى فى سبيل إسعادك ! ... إن كان ذلك يسعدك يا جوليت ، فلا يسعنى إلا أن أفسح لك الطريق ... وإلا أن أدعو لك الله ... دعاء تباركه الدموع » . وحين فرغت من تلاوة رسالته الحزينة ، تطلعت إلى الأمير أوجست وهى تقول له : يا صديقى ، أرجو أن تغفر لى ... لقد عدت إلى قلبى أسأله ، فوجدت أن زوجى هو الرجل الوحيد الذى أحببته ... لك دموعى ، ووداعاً ! وشدت رحالها مرة أخرى إلى فرنسا ... إلى أرض العذاب ، فما عادت تطيق البقاء فى ذلك المكان الذى لف حبها فى أكفانه .

وإلى جانب مسيو ريكامييه راحت فى مأتم الأحلام تقتات على بقايا الذكريات ... ولكن الذكريات تلح على القلب الحزين فيطول ليلها ويطول أرقها فى رحاب الشجن . ويشير عليها الأطباء بتناول بعض المخدرات لتنزع عن نفسها الأرق فلا يفلح الدواء . ويخطر لها ذات يوم أن تضع حداً لهذه الحياة المريرة ، فتتناول زجاجة فيها سائل مميت ، وحين تهم بوضعها على شفتيها يسرع ريكامييه وهو لا يملك نفسه من الفزع ... ويختطفها من بين يديها وهو يصيح صيحة ملتاعة : ابنتى ... ابنتى !. وتطلعت إليه فى ذهول كمن أفاق من حلم مروع ، وأخذت تنظر إلى عينيه كأنما تريد أن تستل من أعماقها سر ما نطق به لسانه ... وحين أوشك ريكامييه أن يفضى إليها بسره الرهيب ، دخل أبوها برنار ، وانتابها شعور خفى لم تدرك له كنهاً ، شعور فيه حيرة تجلت فى عينيها تساؤلا ولهفة ، ومضت تنقل بصرها بين الرجلين ، وصاحت وهى ترتمى فى أحضان برنار : أبى ... أحبك يا أبى ! أما ريكامييه فكان يغالب دموعه !! وعلى الرغم من كل هذا العذاب ، فقد أمر نابليون بنفيها إلى خارج فرنسا حين علم أن بعض الرسائل تصلها من مدام دى ستايل ، تلك الكاتبة التى أشعلته بقلمها ناراً حامية ، هى وصديقها بنجامان كونستان ... ومرة أخرى يممت شطر صديقتها الوفية ، والتقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع !

وحين دالت دولة الجبار ، عادت من جديد إلى أرض العذاب لتقضى بقية أيامها فى أحد الأديرة ... بعيداً عن الناس . وفى مكانها هذا المنعزل يقضى إلى جانبها أمير النثر الفرنسى شاتوبريان أكثر أوقاته ، ويضفى عليها من عذوبة روحه ، وسحر حديثه ، وذوب قلبه ، ما يعزيها عن فقد الأحباب ، ولكن أين من يعزيها عن فقد الشباب ؟.. لقد أطفأت الأيام بريق عينيها ، وعبثت بنضارة وجهها ، وحكمت على شبابها بالأفول !

وقالت له وهو يعرض عليها أن تكون شريكة حياته : يا صديقى ... إن حبك لى هو آخر واحة ترسل ظلالها فى صحراء حياتى ... ولكن أصوات من سبقونى إلى الله ، تهتف بى أن أظل كما كنت ... مدام ريكامييه !.. ومع ذلك فأنا يجدى من التقاء قلبينا وضم جسمينا ، ونحن نحث الخطى إلى القبر ؟!

وهكذا عاشت مدام ريكامييه ... وكانت حياة كلها شقاء ... شقاء مقدس !!

أنور المعداوى



موسيقى الشعر

تأليف الدكتور ابراهيم أنيس

بقلم الأستاذ إبراهيم الوائلي

تفضل أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس أستاذ فقه اللغة بكلية دار العلوم فأهدى إلى نسخة من كتابه « موسيقى الشعر » وقد أخرجه أوائل هذا الصيف دارساً الأوزان الشعرية عند العرب ومقدار تعرض الباحثين لها مؤيداً تارة ومخالفاً تارة أخرى . وقد بنى بحثه على قواعد علم الأصوات وخصائص الحروف من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة . وقد استأثر بآراء جديدة فى التنافر وعيوب الشعر والأوزان الإضافية الزائدة ، وابتداع تفاعيل جديدة .

والكتاب يتألف من أحد عشر فصلا تنوعت إلى مواضيع مختلفة ، وسنشير إلى الفصول ذات الأهمية ، كما أننا سوف لا نكتم ما نجده من ملاحظات على هذه الفصول .

يتحدث الدكتور فى الفصل الأول عن الإحساس الأدبى وعلاقته بالفطرة والتجارب المكتسبة ، ثم عن أثر النغم فى حفظ الشعر ، وعن أبرز صفات الشعر وهى الموسيقى ، وعن التجديد فى هذه الموسيقى التى هى عبارة عن الوزن والقافية وينعى على الشعراء المحدثين عدم تجديدهم فى الأوزان ويعزو ذلك إلى البطء فى تطور الأوزان وأن هذا البطء طبيعى « لأن الناس عادة لا يقبلون الطفرة فى تطور موسيقاهم أو أوزان شعرهم » ثم يضيف إلى هذا إهمال الإنشاد فى عصرنا الحديث ، وهذا الإهمال « أفقدنا إلى حد كبير تذوق الموسيقى الشعرية » . هذا رأى سديد ، ولكن لماذا لا نضيف إليه التزام شعر المناسبات : من مدح ورثاء وغيرهما من الأوزان التى لا تزال آخذة بتلابيب كثير من الشعراء ؟ . وآية ذلك أن الشعراء الذين تحرروا من كلاسيكية المناسبات أخذوا يجددون فى أوزانهم وقوافيهم كما عند المهجريين واللبنانيين وبعض العراقيين . وقد أشار الدكتور إلى هذا التجديد عند المهجريين وذكر لهم بعض شواهد ، ولكنه لا يريد أن يبقى ذلك مقصوراً عليهم بل يجب أن يشيع فى البيئات العربية .

وفى الفصل الثانى يتحدث عن « الجرس فى اللفظ الشعرى » وأهم ما فيه تعرضه للتنافر وتعريف علماء البلاغة له وهو يتفق مع القائلين بأن التنافر إنما يكون إذا تقاربت الحروف فى مخارجها ، ولكنه يشترط لذلك ألا يفصل بين الحرفين حركة من الحركات لأن الحركة صوت كسائر الأصوات الأخر ، وعلى هذه القاعدة يجب أن تنظر فى الشواهد التى ساقها البلاغيون للتنافر .

ثم يتحدث عن طبيعة الأصوات وصلتها بموسيقى الشعر ، فالأصوات المهموسة وأصوات الأطباق وبعض أصوات الحلق لا تستسيغها موسيقى الشعر كما تستسيغ الأصوات المجهورة ، والشديدة أسهل من الرخوة فعدم استحسان كلمة « الطلخم » يرجع إلى الطاء والخاء لأن الأولى من أصوات الأطباق والثانية من أصوات الحلق وكلاهما مهموسان .

وفى هذا الفصل يتحدث عن « جرس الألفاظ فى البديع » ويناقش عبد القاهر الجرجانى مناقشة عنيفة لأن الجرجانى لا يهتم بجرس الألفاظ بل يعزو الجمال فى التعبير — إذا كان هناك جمال — إلى المعنى وحده .

يقول الدكتور فى صفحة ٤٤ : (ولا شك أن عبد القاهر قد بالغ فى هذا مبالغة غير محمودة ، فجمال الجرس أمر معترف به بين أهل الأدب ونقاده ولا معنى لإنكاره) .

ثم يقول فى الصحيفة نفسها : (وتظهر مبالغة الجرجانى حين نتذكر أن نقاد الأدب ، قديمهم وحديثهم ، قد أجمعوا على أمر واحد وهو وجوب إخضاع اللفظ للمعنى) . وإلى هنا يبدو شىء من التناقض بين التعبيرين ، ويظهر أن الدكتور أراد أن يقول : إنهم يجمعون على إخضاع المعنى للفظ حتى يتناسب هذا مع إنكاره لرأى الجرجانى ، وإلا فأية مبالغة تظهر عند الجرجانى وهو الذى لا يقيم لجرس الألفاظ وزناً : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ويستجيد نثراً ثم يجعل الثناء

عليه من حيث اللفظ ... فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوى بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده(١) » . ويقول معلقاً على الجناس والسجع : (وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساقه إليك (٢)) .

والجرجانى يستحسن سجع الجاحظ لأنه خال من التكلف والصنعة وزيف كثيراً من التجنيس عند أبى تمام ومن نحا نحوه لأنه مصطنع متكلف ، ويسوق لذلك أمثلة كثيرة فى أسرار البلاغة للحسن والقبيح .

نعم إننا لا نريد أن نزركش الثياب على جسم ناحل متداعى الأوصال كما أننا لا نريد من الزهرة أن تبتسم وهى بين الأشواك والصخور ، ولعل الجرجانى لا يند عن هذا الرأى .

أما الفصل الثالث فإنه يبحث فى الأوزان وأنواعها ويبحث القدماء لها وفيه نقد للقدماء على إغراقهم فى خصائص الأوزان ومصطلحاتها وإتيانهم بأوزان لم يرد عليها من الشعر العربى شىء وإذا ورد فلا يكاد يتجاوز البيت أو البيتين ، ولعل أكثرها موضوع . كذلك ناقش القدماء فى بعض الأوزان التى افترضوا لها أصولاً ثم سقطت منها بعض التفاعيل مع أنه لم يرد لهذا الأصل الذى افترضوه شاهد من الشعر العربى . ونحن مع الدكتور فى مناقشته لهذا التمحل الذى شغل العروضيون به أنفسهم فلا داعى للافتراض لأن الدوائر العروضية لم توضع اعتباطاً وإنما وضعت وفق ما جاء من الشعر العربى . وفى أثناء بحثه تعرض لبحر المقتضب بشىء من الحذر لأنه نادر الشواهد وذكر قطعة للحسين بن الضحاك شاهداً عليه وأولها :

عالم بحبيـــه مطرق من التيه

ومنها :

لا وحق ما أنا فيــــه من عطف أرجيه

وآخرها :

تائه تزهـــده فى رغبتى فيه

(١) أسرار البلاغة ص ٩ مطبعة الاستقامة .

(٢) أسرار ص ١٥

فقال : إننا مضطرون إلى منع كلمة « عطف » من الصرف حتى يستقيم الوزن . والحقيقة أن الوزن لا يستقيم حتى مع هذا الاضطرار بل يكون الشطر الثانى من المزج على كلتا القراءتين ، ويخيل إلىّ أن البيت مصحف ولا يستقيم إلا إذا قلنا فيه هكذا :

لا وحق ما أنا فيــــه فلا أرتجيه

وإن اختلف المعنى وقال : إن الشطر الأخير من القطعة لا يستقيم له وزن ، والصحيح أن الوزن مستقيم بتشديد « فىّ » وهذا ما يقتضيه المعنى كذلك .

وعالج فى هذا الفصل نسبة شيوع الأوزان فى الشعر مقدماً بعضها على بعض حسب هذا الشيوع وابتدأ بالطويل وذكر ما فيه من التفاعيل الشاذة التى تأباها الأذن الموسيقية ونحا باللوم على العروضيين الذين أقروها لمثل أو مثلين قد تكون من أخطاء الرواة أو من التصحيف . ومن هذه التفاعيل ورود « مفاعيل » و « مفاعل » حشواً فى البيت ومن الأول قول امرئ القيس :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ونحن نوافق الدكتور على هذا ونعتقد أن البيت مصحف إذ تكاد تكون أمثلته نادرة جداً وقد يكون هو وحده الذى روى بهذه الصورة ولذلك روى هكذا :

ألارب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

فراراً من هذا الشذوذ . ومن الثانى قول امرئ القيس أيضاً :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فيا عجباً من رحلها المتحمل

وقد افترض الدكتور قراءة : « عقرتُ » فراراً من الزحاف . كما افترض لبعض الأبيات التى ساقها شاهداً لهذا النوع قراءة تتفق مع الوزن الصحيح ، وإلى هنا لا نستطيع أن نوافق الدكتور على تخطئة الرواة أو التصحيف ؛ لأن هذا النوع شائع عند العرب فى الجاهلية والإسلام وفى العصر العباسى وشواهده كثيرة فى الشعر الجاهلى ، ويكثر عند الأخطل فى صدر الإسلام ومنه قوله :

لجـــاء بها كأنما فى إنائه بها الكوكب المريخ تصفو وتزبد

وعند البحترى فى العصر العباسى ومنه قوله :

جديد الشباب كبره لفعاله وبعض الرجال كبره بسنيه

ومثل هذا كثير لا يتسع المقام لذكره . ولعل مرجع ذلك إلى طبيعة الغناء فى العصر الجاهلى فإن معظم الشعراء كانوا يترنمون بأشعارهم حين ينشدون وهذا الإنشاد قد يطيل المقاطع والحركات فلا يحس الشاعر بنبوة أو شذوذ . وإطالة الحركة شائعة فى الشعر قال لبيد :

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

فوزن البيت يقتضى إطالة الكسرة فى هاء « إليه » وعلى هذا فلا يبعد أن امرأ القيس كان ينشد بيته هكذا :

ويوم عقرت(و) للعذارى مطيتى فيا عجباً من رحلها المتحمل

أما شيوعه فيما بعد العصر الجاهلى فلأن الشعراء وجدوه شائعاً فنسجوا عليه . على أننا مع الدكتور فى أن هذا النوع من التفاعيل يجب الابتعاد عنه .

وفى استعراضه لبحر البسيط ذكر شواهد لمجىء « متفعلن » بدل « مستفعلن » فى حشو البيت . ومن هذه الشواهد بيت للنابغة وهو :

مرانه ، ماخلا (لبانه) ، لحق وفى القوائم مثل الوشم بالقار

وآخر لأعشى باهلة وهو :

طاوى المصير على (العزاء) منجرد بالقوم ليلة ، لا ماء ولا شجر

وقد وضعنا كلمتى (لبانه) و (العزاء) بين قوسين إذ فيهما يرد احتمال الشذوذ . أما القراءة الصحيحة فإنها تجعل البيتين مستقيمى الوزن ، فصحة الكلمة الأولى : (لبّاته) بياء مشددة وتاء جمع لبّة وهى موضع القلادة . وصحة الكلمة الثانية (العزّاء) بتشديد الزاء وهى السنة الشديدة وهذا ما يقتضيه المعنى أيضاً .

تعرض الدكتور فى ص ٩٤ لبحر المديد وذكر أنه وزن قديم جداً هجره الشعراء وليس فى القدماء الجاهليين من نظم عليه ما يستحق الذكر إلا بضعة أبيات نسبت للمهلهل بن ربيعة . ولا أدرى هل يوافق الدكتور على رواية أبى تمام فقد روى هذا قصيدة ذات ٢٦ بيتاً لتأبط شراً وأولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل

ولعل رأى الدكتور فى بحر المديد أرجح لأن الأصمعى نفسه شك فى أن تكون هذه القصيدة جاهلية لبعض المعانى والتعابير التى وردت فيها ؟ وقد أشار إلى هذا التبريزى فى شرحه للحماسة وبيّن الآراء التى قيلت فيها .

وقد جمع الدكتور بين الهزج ومجزوء الوافر فى بحث واحد وسرُّ هذا الجمع كون البحرين يلتقيان فى تفاعيلهما ويفترقان فى بعض التغييرات . فالهزج يأتى فيه « مفاعيل » أحياناً بدل « مفاعيلن » ولا يجوز ذلك فى مجزوء الوافر . كما أن هذا الأخير تأتى فيه « مفاعلتن » ولا تأتى فى الهزج . وقول الدكتور : (فإذا جاءت الأبيات مكونة من مكرر مفاعلتن وحدها فذلك هو مجزوء الوافر) قول صحيح لا غبار عليه . أما قوله : (وإذا رويت من مكرر « مفاعيلن » وحدها فهنا يلتبس الأمر بين مجزوء الوافر والهزج) فهذا ما لا نستطيع أن نؤيده بل نقول : إنه الهزج بصورته الأصلية القديمة ، وكان على الدكتور أن يبرئ الهزج من « مفاعلتن » ليستريح من كل هذا العناء ، والذى جعله يمزج بين البحرين هو هذا الخلط العجيب الذى درج عليه بعض المحدثين فلم يفرقوا بين الهزج ومجزوء الوافر بل تأتى القطعة وهى خليط من هذا وذاك . فالقطعة التى نقلها الدكتور من ديوان (الملاح التائه) شاهداً على الهزج لا يقرها الوزن الصحيح لأنه يقول فيها :

هنالك على ربى الوادى لنا مهد من العشب

فإن الشطر الأول من مجزوء الوافر حتما لمجىء « مفاعلتن » فيه

وقال : (ويظهر أن الهزج تطور لمجزوء الوافر جاءت به عصور الغناء أيام العباسيين ولم يكن معروفاً أيام الجاهليين) وقد بنى رأيه هذا على ندرة الشواهد وعدم اعتماده على الرواة فى معظم الأحيان . ولو أنه اعتمد على رواية أبى تمام لما أنكر وجود الهزج فقد روى أبو تمام فى الجزء الأول من الحماسة قطعة نسبها إلى الفند الزمانى من شعراء بكر بن وائل ومنها :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان

والدليل على أنها من الهزج قوله فيها :

ولم يبق سوى الأعداء دناهم كما دانوا

وقوله :

بطمن كفم الزق غذا والزق ملآن

فقد وردت « مفاعيل » في البيتين الأخـيرين وهي من خصائص الهزج .

هناك شيء يجب أن أشير إليه بإعجـاب وهو التفاعيل التي استنبطها الدكتور لتبنى منها الأوزان الشائعة بعد ترك الأوزان التي لم يرد عليها شاهد صحيح ، وهذه التفاعيل ثلاث : فعولن ، فاعلن ، مستفعلن . ثم يضاف إلى كل تفعيلة مقطع ساكن فيتولد ثلاث تفاعيل أخر : وهي فعولان ، فاعلان ، مستفعلان . ومن هذه التفاعيل الست يمكن بناء عشرة أبحر ماعدا الكامل والوافر والهزج . وعذر الدكتور في استثناء هذه الثلاثة أنها قد تشتمل على مقطعين قصيرين متواليين فيتعذر بناؤها . وكان على الدكتور أن يضم الهزج إلى هذه البحور العشرة ويبنيه من « فعولان » مكررة بعد أن قلنا : إن الهزج لا تأتي فيه مفاعلتن ، أما الكامل والوافر فإنه يمكن أن تجرى فيها على قواعد الصرفيين . ونقول : إن الحرف المتحرك لا ينافى أن يقابله الساكن في التفعيلة لأن الصرفيين كثيراً ما يقابلون الساكن في الكلمة بالمتحرك في الميزان الصرفي ؛ فيقولون : اشتد على وزن افتعل . وإن كان في هذا مجال للبحث .

وفي الفصـل الرابع تعرض لتحليل المستشرقين للأوزان واتخاذ نظام المقاطع بدل التفاعيل . ولعل هذا يحتاج إلى دراسة شاملة ؛ لأن نظام المقاطع مبني على دراسة الأصوات اللغوية وهذه لا تزال في بداية مراحلها .

وفي الفصل الخامس تحدث عن غناء الشعر وإنشاده وعلاقة هذا بجودة الشعر وموسيقاه ونبه على ضرورة العناية بالإنشاد في المدارس لتؤدى رسالة الشعر غير منقوصة . ولدى الحقيقة أن إهمال الإنشاد في العصر الحديث قد أفقد الشعر ميزة كبرى لا تقل عن العاطفة والتعبير .

واختص السابع بدراسة أوزان المولدين كالمستطيل والممتد والمتوفر وغيرها وشيوع الأزجال المبنية على نظام البحور القديمة وقد ذكر لهذا عدة شواهد من مقدمة ابن خلدون ومن الأزجال المصرية الحديثة وحاول جهد الطاقة بناءها على البحور الشائعة .

والحق أن الأزجال في البلاد العربية كلها أو معظمها موزون كالشعر الفصيح ولكن الوزن يختلف باختلاف اللهجات والأغاني في الشعوب العربية ؛ لأن الشقة قد أصبحت بعيدة بين البيئات العربية في تأدية الكلمات العامية .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أثني على المؤلف الجليل لما بذله من عناية وجهد في هذا الكتاب فجاء تحفة رائعة تغني عما كتبه العروضيون وتكفي من يريد درس العروض دراسة صحيحة يستطيع بواسطتها أن يعرف النسج الشعري دون مشقة أو عناء ويتجنب العيوب الشعرية من علل وزحافات وغيرها .

ابراهيم الوائلي

مطبعة الرسالة